مصطفى صادق الرافعي

« إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود . . . إن للرافعي حقًّا على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية . . . إن فيه قناعة ورضى وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهي أن يعيش ، واتركوه يعمل ويفتنّ ويبدع لهذه الأمة في آدابها ما يشاء أن يبدع ، وإلا فما كفلوا له العيش الرضيّ في غير هذا المكان » .

هذا ما كتبه الشاعر حفني ناصف إلى وزارة الحقانية عن الأديب الشاعر مصطفى صادق الرافعي ، وكان الأول مفتشاً بالوزارة ذهب ليحقق شكوى من عدم احترام الرافعي لمواعيد العمل ، وكان الثاني كاتباً صغيراً بمحكمة طنطا الأهلية .

هذا الكاتب الصغير الذي لم يتجاوز أكبر مرتب تقاضاه في حياته بضعة وعشرين جنيهاً ، والذي عاش معظم سني حياته قانعاً بركنه الصغير في محكمة طنطا ، كان أمة وحده في عالم الأدب ؛ فكم أدار من معارك أدبية ومساجلات مع كبار الأدباء والشعراء في مصر والشرق امتد بعضها لبضع سنين ، وكم من درّة أخرجها تتألق في جبين الأدب العربي ، وكم كان له من إنتاج عميق غزير ، وكم صبر على الأذى الذي ألحق به كثيراً بغير حق ؛ وكان أشد ما يهاجمه به خصومه بعد أن تعجزهم الحجة ويسقط في أيديهم أن يتهموه في مصريته ! .

حقيقة أن الرافعي ينحدر من أصل سوري إلا أنه ولد في يناير سنة ١٨٨٠ في قرية بهتيم من مديرية القليوبية في مصر ، ونشأ في مدينة طنطا حيث عاش أبواه وماتا ، كما دفن هو أيضاً في ثراها يوم ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ؛ ولقد مكث الرافعي في المدارس حتى نهاية المرحلة الابتدائية ثم أصيب بمرض خطير لم يبرأ منه إلا بعد أن فقد سمعه ، فانقطع عن المدرسة ، وعكف في بيته يدرس ما حوَت مكتبة أبيه

من تراث العلوم الدينية والفقهية واللغوية . وأسرة الرافعى مشهورة بدينها وتقواها وما أنجبت من علماء دينيين وقضاة شرعيين متضلعين فى علوم الفقه .

وكان لهذه النشأة أثر بعيد فى سلوك الرافعى فى الحياة ، فقد باعدت هذه العاهة بينه و بين الناس ، كما زادت طريقته فى تحصيل العلم الهوّة بينه و بينهم فعاش غريباً فى بلاده منفرداً فى حياته رغم هذا الكفاح الطويل المرير الذى حمل رايته من أجل اللغة العربية والقومية الشرقية اللتين كانتا له هدفاً حتى قال : « القبلة التى أتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ، ويزيد فى حياتها وسمو غايتها و يمكّن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ، ثم إنه يخيل إلىّ دائماً أنى رسول لغوى للدفاع عن القرآن ولغته و بيانه » .

لكن الرافعى قبل أن يحدد هدفه فى الحياة هذا التحديد الواضح كان يعدّ نفسه ليكون شاعراً من فحول الشعراء يحتل مكانة كمكانة بعض معاصريه مثل حافظ أو البارودى ، وقطع مرحلة طويلة فى هذه الطريق حتى صقلت موهبته ونضجت وأخرج للناس ديواناً من ثلاثة أجزاء ، ثم أتبعه بديوان آخر ؛ لكنه عاد فأحلّ النثر من إنتاجه المكان الأول ، لكن غلبت على أسلوبه الشاعرية ؛ فهو ناثر شاعر ، أو كاتب يكتب بأسلوب الشعراء .

وكان الشرق فى تلك الفترة من حياة الرافعى ينفض عن نفسه غبار سبات عميق قد أخذ يفيق منه ، ودبّت فى أوصاله روح جديدة ، وأخذ ينبثق فى أرجائه وعى جديد ، وتلفت الشباب باحثاً عن أغانيه فقدم له الرافعى نشيده الخالد :

اسلمى يا مصر إننى الفدا ذى يدى إنْ مدّت الدنيا يدا
أبدًا لن تستكينى أبدا إننى أرجو مع اليوم غدا

فكان نشيداً وطنيًّا ، ثم نشيداً لكشافة مصر ، ثم نشيداً قوميًّا . وتتالت أناشيد الرافعى حتى لقب يوماً بشاعر الأناشيد :

ولقد تجاوبت نفس الشاعر مع ثورة الشعب التى قام بها عام ١٩١٩ فعبّر عن آلامه وآماله بنشيده :

حُماة الحِمَى يا حُماة الحمى هلمُّوا هلمُّوا لمجد الزمن

لقد صرخت فى العروق الدما نموت ، نموت ؛ ويحيا الوطن

لكن الرافعى ذلكم الشاعر مرهف الحس رقيق القلب ما كان ليستطيع أن يغمض عينيه عن مناظر البؤس المحيط به والفقر الذى يكبل أغلبية مواطنيه بقيوده وأحزانه ، فيمضى يكتب الأناشيد ونفسه تتقطع حسرات على إخوان له فى الإنسانية . . . لقد نفّس عن آلام نفسه بكتابه « المساكين » الذى كان لصدوره دوى كبير فى عالم الأدب العربى . . . ولقد قال فى مقدمته . . . « هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقّعة جديدة . . . فقد والله بَلِيَتْ أثواب هذا الفقر ، وإنها لتنسدل على أركانه مِزَقاً متهدلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلفّقها بخيوط من الدمع ، ويمسكها برُقَع من الأكباد ، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخيبة إلى هم . وأقبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً ، أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين . . . » .

وفى قصيدة من هذا الكتاب قال يصف فتاة أفقرتها الحرب (٩١٤و٩١٨) :

طريدة بؤس ملَّ من بؤسها الصبرُ وطالت على الغبراء أيامها الغُبْرُ

تنكَّرت الدنيا لها ، ورمَتْ بها على الكوكب الهاوى حواهُ فضاً قَفْرُ

وكانت كما شاءت وشاء جمالها كما اشتهت العليا ، كما وصف الشعر

وما قيمة الحسناء يقبح حظها وتذوى بروض الحب أيامها النضر

من الحسن معنى يهلك الحسن عنده كما أهلك الأزهارَ أن يؤخذ العطرُ

وإنى ليأخذنى العجب والإعجاب بهذا المعنى الأصيل المبتكر فى وصفه النوم فى العراء فى نفس القصيدة حيث يقول :

وفى غرفة مما بَنَى الله لا الورَى فليس على مَنْ حلّ ساحتها أجرُ

جوانبُها شرق الظلام وغربه وفى سقفها ضاءت كواكبه الزُّهْرُ

ولقد تجلت شاعريته فى أروع صورها عند ما كتب عن حبه ... حبه العذرى النادر فى عصرنا الحديث ، وكان غرامه بأديبة فيلسوفة شاعرة ، وكانت فى طريق هذا الغرام عقبات كبار ، لعل أهمها اختلاف الديانة .. وقد عرفها فى صالونها الأدبى الذى كان كعبة الأدباء والشعراء فى القاهرة ، ثم اتصلت بينهما الأسباب ، وما أكثر ما انقطعت . فلجأ إلى الكتب يتحدثان حديثهما العذب لتشركهما الملايين فى متعتهما المثلى . فاستمع إليه يتحدث إليها :

« لقد وضعك حسنك فى طريق موضع البدر . يرى ويحب ولا تناله يد ، ولا تعلق بنوره ظلمة نفس . لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ . كأنه ما خلق ذلك الخلق المنتثر الوعر إلا لندق به قلوب المصعدين فيه ... كونى من شئت أو ما شئت خلقاً مما يكبر فى صدرك ، أو مما يكبر فى صدرى . كونى ثلاثاً من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكونى ثلاثة آلام . انفحى نفح العطر الذى يلمس بالروح ، واظهرى مظهر الضوء الذى يلمس بالعين ؛ ولكن دعينى فى جوك وفى نورك ، اصعدى إلى سمائك العالية ولكن ألبسينى قبل ذلك جناحين ؛ كونى ما أرادت نفسك ، ولكن اشعرى نفسك هذه أنى إنسان » ... وكاد الزواج أن يتم بينهما ، لكن أهليها قالوا إنها مجنونة ، وحملوها إلى مصحة فى موطنها الأصلى حيث سجنوها إلى أن مات الرافعى .

قلت فى مستهل حديثى إن الشرق كان يستقبل أنسام نهضة جديدة عند ما كان الرفعى فى فجر شبابه ، وقد صحب هذه الصحوة قيام فريق من الأدباء بالدعوة

إلى التجديد فى كل شىء و إنكار القديم فى كل شىء ، بل دعوا إلى تمصير اللغة العربيـة عن طريق إدخال الألفاظ الدارجة ومزج تراكيبها بالمصطلحات العلميـة . وكانت « الجريدة » ، ومن بعدها « الجديد » لسان حال هذه الدعوة الجديدة ، وزعموا أن الميراث الأدبى البليغ قديم ، و يجب أن يذهب بذهاب ، أهله فلم يتصدّ لمدافعتهم سوى الرافعى ، وهو من هو من صغر الشأن ، على حين كانوا جماعة كبيرة من أصحاب الجاه والسـلطان ، وكانت المعركة خـيراً و بركة على الأدب العربى إذ حوّلت الرافعى إلى محام عن العربية وآدابها ، فأخرج على أثر ذلك كتابه (تاريخ آداب العرب) الذى قال عنه أمير البيان شكيب أرسلان « لو كان هذا الـكتاب خطًّا محجوباً فى بيت حرام إخراجه منه ، لاستحق أن يحجّ إليه ؛ ولو عكف على غير كتاب الله فى نواشئ الأسحار لـكان جديراً بأن يُعكف عليه » .

أعقب هذا الـكتاب جزء ثان فى إعجاز القرآن . لقد كتب الرافعى الـكثير عن الإسلام ، ودافع عنه كثيراً أمام ناقديه ، ولعل ما كان يغمزه به خصومه فى مصريته هو ما جعله يكثر من طَرْق هذا الموضوع والخوض فيه ، بل جعله من الروّاد الأوائل فى القرن العشرين الذين جددوا دعوة الإسلام العالمية التى تعتبر كل بلاد المسلمين وطناً لهم أينما كانت شرقاً أو غرباً ، وترمى إلى محو الحدود السياسية بين بلاد الوطن الإسلامى .

عبقريتان ظهرتا فى شرقنا العربى فى مطلع القرن العشرين . أما العبقرية الأولى فقد تمثّلت فى الفنان سيد درويش الذى بعث الموسيقى الشرقية بعثاً جديداً ، وأما العبقرية الثانية فكانت عبد الحميد الديب ذلكم الشاعر العظيم .

وكان لقاؤهما عبقريًّا عجيباً لا دخل فى تدبيره لغير الصدفة إذ هى التى ساقت الديب إلى حىّ بولاق ، وهناك اختار إحدى المقاهى البلدية ليقضى فيها بعض فراغه ، وجلس ليحتسى الشاى فاسترعى نظره رجل يلوك فى فمه شطرة من أغنية فى أحد أركان المقهى وقد أخذ يردد هذه الشطرة عشرات المرات دون أن يتمّها :

« والله تستاهل يا قلبى »

فتقدم منه الديب متطفلا وقال له : كمِّلها :

والله تستاهل يا قلبى ليه تميل ما كنت خالى
إنت أسباب كل كربى إنت أسباب ما جرَالى

وكاد سيد درويش أن يطير فرحاً ، فانتصب واقفاً وعانق الديب ، وأخذ يقبّله استحساناً .

كان الديب حينئذ طالباً فى مدرسة دار العلوم فى منتصف العقد الثالث من عمره وقد هبط إلى القاهرة من بلدته كمشيش مركز منوف ليطلب العلم فى الأزهر كغيره من أبناء الريف، فلما أتم المرحلة الأولى من التعليم الأزهرى التحق بمدرسة دار العلوم ليتخصص فى العربية وآدابها .

ولقد كان مولده قبل مولد القرن العشرين ببضع سنين فى تلك القرية من أسرة

متوسطة الحال تاجَرَت فى القطن فارتفعت فجأة وانخفضت فجأة ، فعاش الديب حياتين ، وذاق لونين جد مختلفين من ألوان العيش ...

ولقد هزت الأحداث التى مرت به نفسه فزلزلت كيانه ، وأحدثت اضطراباً عنيفاً فى تفكيره ومشاعره ؛ فاشتركت كل هذه العوامل فى تشكيل مزاج هذا الإنسان فكان رقيق المشاعر ، لكنه عنيف الثورة . . له قلب طفل وعقل فيلسوف . . سريع الغضب ، سريع الرضا .

وكان لانتقاله السريع إلى حضيض الفقر مرتين أثر بالغ فيما عرف عنه من حقد مكين على المجتمع ، بل إن هـذا الانتقال قد هيأ للديب فرصة نادرة لتصوير حياة السواد الأعظم لمجتمعه أصدق تصوير . . هذا السواد الجاهل الفقير ، ولو أنه كان كثيراً ما يستعير هذه الصور من حياته نفسه كقوله :

أَذلّه الدهر لا مالٌ ولا سَكَنٌ فتًى تزيد على آنفاسه المِحَنُ
ثيابه كأَمانيـه ممزّقةٌ كأنه وهو حيٌّ فوقه كَفَنُ

وهو فى أحط درك من الفقر لا ينسى عبقريته ونبوغه وتفوقه ، وهى أمور عميقة فى شعوره ، فيقول مسترسلا فى نفس القصيد بعد أن يعترف بأن حكمته مضيعة لفقره ، ونتاجه هباء لمكانته من المجتمع :

كأنه حكمةُ المجنون يرسلها بغير وَعْىٍ فلا تُصغى لها أُذُنُ
هو الهدى صرَفتكم عنه محنته إن العزيز مهين حين يُمْتَحَنُ
ألا فصونوه من بأسائه كرما ولا تخلّوه يورى شره الزمن
إذا رأيتم محيل البؤس آض لكم من المعارف روضاً نبته حسن

بل إن الديب مهما زلزل إيمانه بكل قيم الحياة فإن هذا الإيمان بنفسه لا يتزعزع طرفة عين ، بل هو يبلغ منتهى القوة ؛ بل الغرور ، حين يقول :

أليس بياض الكوكايين مبشراً بأسود عيش فى غياهبه أقضى
فمن فَقَدْ عقلٍ كان مبعثَ حكمةٍ إلى البؤس فى ذل السؤال أو القرض
إلى السجن بين المجرمين يؤودنى زمان كيوم الحشر يأتى ولا يمضى

وفاطمة هذه التى يتوجه إليها بالحديث ، قيل إنها بائعة ياانصيب ، ومدمنة كان يقاسمها كما كانت تقاسمه ما يحصلان عليه من المخدر ، وكان لها وفيا وفاء نادراً كما كانت له .

وهو يمضى يلتمس المعاذير لنفسه من سوء حاله فيقول :

يقولون : سكّير . وما شربوا كأسى وما شربوا البلوى كما شربتْ نفسى
إذا قلت : قديس : يقولون : سادرُ و إن قلت : حيٌّ يحملونى ؛ إلى رمسى

لكن إذا طالت البلوى وأزمن الفقر لابدَّ أن يضيع الحياء ؛ لاسيما بعد أن انكشف الستر ، و زار السجن ؛ فنرى الديب بعد ذلك مستهتراً لا يحاول الدفاع عن نفسه أو الحياء من بوائقه ؛ بل نراه ينقلب متمرداً على التقاليد ، هازئاً بالناس ، ساخراً بالمواضعات ، مدافعاً عن مباذله ؛ فيقول فى إحدى قصائده :

هات المدامَ فدِينُ الله تيسيرُ وأسعدُ الناس مخدورٌ ومخمورُ
هات المدام ولا تعرض لمَتْرَبَتِي مهما غلا العيش لم تَغْلُ القوارير
هات المدام الصبوحَ البكرَ يحملها إليك أَخْنَثُ ساجى الطرف مغرورُ
إذا دعوتَ تراخى عنك معتذراً وأسكرتْ كالطُّلَى منه المعاذيرُ
فديتها حانة الحاخام هادئة سكرى يعربد فيها الحُسْنُ والنُّورُ

وهو لا يرى أى غضاضة بعد ذلك فى اعترافه أنه لا مكان له إلا قارعة الطريق أو حانة الحاخام هذه :

مَنْ كان يحسدنى فليرتقب سَحَراً إنى على الجوع أطوى الأرض حيرانا
ليلتمسنى لدى الخمّار يحبسنى فى السجن آناً وفى حانوته آناً

وحانة الخاخام هذه حانة صغيرة حقيرة فى حارة اليهود ، وكان يحتفل صاحبها به لِمَا يراه من التفاف الروّاد حوله وانجذابهم إلى حانته بفضل وجود الديب فيها ، وكان مبالغة فى إكرامه يدعوا بنته الجميلة إلى القيام على خدمة الديب أحياناً ؛ حتى أغرم بها الديب ، وشغف بها حبًّا ، وقال فيها شعراً كثيراً . ولعل من أبلغ ما وصفها به هذه الصورة الشعرية الأصيلة التى بلغت من روعة التصوير ودقة الوصف قصى المدى :

لا جنّبونى لَحْظَها وقوامها ... وثدياً وراء الثوب يقظان يحلمُ
تقدّمُ لى كأسى وترنو مُدِلّةً ... فمن أىّ خمريها أجنُّ وأُلهَمُ ؟

ألا تلتمسون عذراً لهذا العبقرى الذى ردّ إلى الشعر العربى اعتباره أمام التاريخ وبعد ما عرفتم ، إذا هو صاح بأمته التى جهلته وتركته مضغة سهلة للداء ولأنواء الحياة ولم تقدر نبوغه وفنه قائلاً :

يا أمة جَهِلتنى وهى عالمةٌ ... أن الكواكب من نورى وإشراقى
أعيش فيكم بلا أهلٍ ولا وطنٍ ... كعيش منتجع المعروف أفّاقِ
وليس لى من حبيب فى دياركمو ... إلا الحبيبين : أقلامى وأوراقى
لم أدرِ ماذا طعمتم فى موائدكم ... لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى !

لكن الحظ يومض ومضة واحدة فى آخر أيام الديب ، يوم التقى فى مقهى الفيشاوى بالحى الحسينى بوزير أديب فى إحدى سهرات رمضان ، فيشفق عليه الوزير ، ويسعى له حتى يعين فى وظيفة بوزارة الشؤون الإجتماعية عام ١٩٤٣ ، ويبالغ الحظ فى إكرام الديب فيزوجه من سيدة تجمعها به رابطة البؤس . ويبدو الديب لأول مرة فى ثياب نظيفة منظمة ، ويتذوق معنى الحياة المنتظمة ؛ لكن الديب يموت فجأة ولم تنقض أشهر معدودات على زواجه ووظيفته ، وكأنى به كان ينظر بعين الغيب يوم قال :

أنا ملك عبقريّ الجـلال وإنْ صَدَفَ التاجُ عن مفرق

ولابد أن يكون لهذا الملك آمال عراض تتفق وجلال تصوره ؛ فتراه أول مايهبط القاهرة ، ويلتحق بالأزهر ؛ يستأجر حجرة متواضعة فى (قصر الشوق) بالحى الحسينى ، ولا تلبث هذه الحجرة أن تصبح نادياً سياسيًّا ومقرًّا (لحزب العطف على الإنسانية) الذى ألفه مع زميله الشيخ محمد بدير (المحامى الشرعى الآن) . وقد ألغى الديب حزبه بعد أول نقد وُجِّه له فى صورة كاريكاتورية بمجلة الـكشكول . وكان الديب جبانا أمام النقد وأمام الموت لا يتصور كليهما ... بل يفر منهما فراراً . وجاء بعد ذلك لقاؤه بسيد درويش فـكان نقطة تحوُّل فى حياته ، إذ كان سيد درويش فى حاجة إلى من يمده بالأغانى ، وقد وجد فى الديب العبقريّ الموهوب الذى طال ارتقابه ، فلم يفلت الفرصة المتاحة ، وقرّب الديب إليه ، وأغدق عليه المال بغير حساب ، وكان الـكرم من الخصال الأصيلة فى الفنان سيد درويش .

وفى غمرة هذا الـكرم انتقل الديب للسكنى فى مسكن أنيق (ڤيلاّ) ولم يقدر عواقب الآفة الملعونة التى أعداه بها سيد درويش ، ولا عمل حساباً للزمن وتقلبات الأيام ، وإذا بالموت يختطف صاحبه فجأة ، وإذا بالمخدر يلتهم ما بين يديه من مال . وتنقطع أسباب الرزق بالديب فتلفظه (الڤيلاّ) إلى الطرقات يمشى فيها هائماً طول الليل ، ويأوى مع مطلع الفجر إلى المساجد . ولقد انتهى به المطاف ذات ليلة إلى مسكنه الأنيق ، فوقف يناجيه بقصيدة من عيون الشعر ؛ قال فيها :

لو أستطيع البُـكا يا أيها الطَّلَلُ بكيتُ حتى شكَتْ من دمعى المُقَلُ
أرى الحوادث ذؤباناً مقذَّفة علىّ دون الورى تَعْدُو وتقتتل
فـكم تصوَّح عودى بعد نُضرته وكم خَبَا فى دياجى عمرىَ الأمل
وكم دعت لى أمى وهى باكية وكم دعا لى أبى يقظانَ يبتهل
إذا تطلّبت عيشى مِتُّ من كمد وإن تطلبت حَينى يبعُد الأجَلُ

وأجلس الليل فى صحبى أسامرهم وكلهم بمجالى رقتى حفلوا
حتى إذا سلّموا للعوّد وانصرفوا سريت جوعان يفرى عزمى الكلل
جوعان ! يا محنة أربت على جلدى كأنّ ليلى بيوم البعث متّصلُ

ومن كان فى مثل طبع الديب من الكرم والجود يحزّ فى نفسه ألا يجد ما يدعو الصحب إليه ، بَلَهَ ما يتبلغ به . وقد عبر عن أساه بقوله :

مرّوا على الدار يوم العيد ضيفانا يستمطرون نداها كالذى كانا
والدار لما رأتهم مقبلين لها تعاونت فى البكا أهلا وبنيانا

وتشتد المحنة بالديب ، ويشعر بدبيب الفناء يحمله إليه المخدر الذى أدمن عليه ، وهو لا يريد أن يحمّل نفسه شيئاً من تبعة حاله ، بل يلقى العبء كله على الحظ ، فيقول كأنه يرثى نفسه وأمانيه :

وداعاً شبابى فى ربيع شبابى وأهلا حسابى قبل يوم حسابى
أمانىّ تفريها الخطوب رأيتها كأشلاء قتلى فى رؤوس حراب
ولو أن وهّاب الحظوظ أراد لى سلامة إحداها لخفف ما بى
ولكنها ماتت بليلة عُرسها ومن دمها القانى جعلت خضابى

وتردّى الديب فى الهاوية إلى منتهاها ، وشاعت أنباء نكبته بين الأدباء ، فراح أحد كبار الشعراء يدعو الزملاء للأخذ بيد زميلهم فى محنته ، وكتب مقالا طويلا فى الأهرام بعنوان (الأديب الشمّام) .

ورغم أنه لم يذكر اسم الديب صراحة فى المقال إلا أن كل سطر كان يشير إليه ، وعزّ على الديب أن يعرف الناس أمر انحلاله ، فأخذ يدافع عن نفسه فى قصائد كثيرة من أروعها قوله :

أفاطمَ إن الناس قد أكلوا عِرْضى وبتُّ لعيناً فى السموات والأرضِ
يقولون : شمّام . وما شمّ معطسى سوى الوردة الفيحاء والنرجس الغضِّ

بينى وبين الغِنَى خصامُ وفُرقةٌ مالها التئامُ
فلو تدانى إلىَّ يوما لردَّه عنِّىَ الحِمَامُ

وقبل أن نختتم هذا الحديث لا يفوتنا أن ننوِّه بالسخرية فى شعر الديب ، فقد كانت السخرية إحدى طباعه الأصيلة . ولقد طلع الديب على الناس بصور كاريكاتورية رائعة فى سخريته الشعرية ؛ إلا أن حقده على المجتمع الظالم الذى عاش فيه كان يجعل هذه الصور تقطر مرارة وأسى . . استمع إليه يصف حجرته وقد أسماها « جُحر الذئب » :

أفى غرفتى يا ربّ أم أنا فى لحدى ألا شدَّ ما أَلْقَى من الزمن الوغدِ
فأهدأُ أنفاسى تكاد تهدُّها وأيسر لمسٍ فى بنايتها يُرْدِى
ترانى بها كل الأثاث ، فمعطفى فراش لنومى أو وقاء من البرد
وأما وساداتى بها فجرائد تجدّد إذ تبلى على حجر صَلْدِ
تساكننى فيها الأفاعى جريئةً وفى جوّها الأمراض تفتك أو تعدى

وهى صورة لمعظم مساكن الفقراء التى نادى الكثيرون بإصلاحها ، وقد كان من خصائص المجتمع الذى عاش فيه الديب النفاق ، و بغيره يضيع المرء و يسقط من ركب الحياة ؛ وقد قال الديب فى ذلك :

أُنافق فيها مُكرهاً لخصاصتى وأبذل نفسى أن أنال حياها

وكذلك اشتهر هذا المجتمع بخطب العرش الخيالية والمشاريع الوهمية التى لا يقصد من ورائها إلا الدعاية للأفراد . ومن أمثلة هذه المشاريع مشروع سموه (مشروع الحفاء) لمنح كل مصرى حذاء ينتعله ؛ وطبيعى لم يلمس الديب أى أثر جدّى لهذا المشروع ، بل كان يرى أن الجوع أولى بالعلاج .

ولقد استشرى الفساد وسادت شريعة الغاب ، وأصبح اللص شريفاً عظيما ،

وما زال الشعب يرجو خيراً ويأمل بمشروعات وزارة التموين نفعاً فنرى الديب يصيح بهذا الشعب الطيب :

كلُوا الحكومة أو موتوا من الجوع صوت الضعيف المرجّى غير مسموع

ويرى الديب أحزاب الأقلية التى تسمى نفسها أحياناً بأحزاب المعارضة تعقد الاجتماعات المتوالية والولائم للاجتماع والتآمر للظفر بكراسى الحكم ، ويعزُّ على الديب ألا يجد ما يأكله ، وهؤلاء المعارضون مغرقون فى المآدب ، فيقول فى سخرية عجيبة :

أقضّى ليالىَّ الطوال على اللضَى فيا ليتنى يا قوم كنت معارضا

وقال يسخر من حزب آخر

برامكةٌ وليس لهم رشيدُ وأقيال وكُلهمو عبيدُ

مدحتهمو فما شرفوا بشعرى نخستهم وما شَرُفَ القصيدُ

وقد تجد الفكاهة الرائقة فى سخرية الديب كما قال فى أحد البخلاء :

الجود عندكمو أضغاثُ أحلامِ وأكلة اللحم من عامٍ إلى عامِ

ولقد أشرقت سخرية الديب وانتفت منها المرارة والحقد بعد أن اطمئنّ إلى عيشه ووجد رزقه ، لكنه ما كان يتصور أن الأمر بلغ من الفوضى إلى حد خلق الوظائف والدرجات قبل أن يجدوا لها العمل ؛ حتى ولا المكان ؛ فلا يملك نفسه أن يقول :

بالأمس كنت مشرداً أهليًّا واليوم صرتُ مشرّداً رسميًّا

مىّ . . . اسم كان ملء الأسماع والأفواه ثم اختفى فجأة فى غمرة الحياة ، كما أقفر ناديها فجأة ، ذلك النادى الذى جمع بين الأدباء والعلماء ورجال السياسة ، وبين مختلف الثقافات ؛ وكان له أثر بعيد فى توجيه التيارات الأدبية فى الشرق العربى. ولقد أجاد مطران وصفه ووصف فجيعته فيه حين قال :

أقفر البيت أين ناديك يا مـــىّ إليـــه الوفـود يختلفونا
صفوة المشرقين نُبْلاً وفضلاً فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتُساق البحوثُ فيه ضُروباً ويُدار الحديثُ فيه شُجونا
وتصيب القلوبُ وهو غِراثٌ من ثمار العقول ما يشتهينا

والواقع أن منتدى مىّ هو آخر منتدى عرفته القاهرة ، فتح أبوابه لأصحاب مختلف الثقافات وللأدباء خاصة . فكم قدّم لعالم الأدب العربى من أديب جديد أصبح بعد قليل نجماً لامعاً فى عالم الأدب ؛ وكم من مساجلات ومناقشات دارت فى رحابه فكانت كلها خيراً وبركة ؛ وكم من صداقات نافعة نشأت أول ما نشأت بين جنباته ، وكان الفضل فيها لكياسة صاحبته وحذقها فى استقبال ضيوفها وإدارة الحديث بمهارة بالغة دون أن يحس أحد من الحاضرين أنها متزعمة أو متصدرة فى الحفل . وكانت تسود الجمع روح ديموقراطية مستمدة من روح صاحبة المكان .

لكل هذا كان الجميع يعشقون هذا المنتدى ولا يتخلفون عن الحضور إليه فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ؛ حتى قال الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبرى :

روحى على دُور بعض الحىّ هائمةٌ كظامئ الطير توّاقاً إلى الماء
إنْ لم أُمتّع بمىّ ناظرىَّ غداً أنكرتُ صبحك يا يومَ الثلاثاء

وكان فقد هذا المنتدى وصاحبته فجيعة أحسّ بها كل روّاده وعارفو فضله . وقد عبر الدكتور طه حسين عن شعوره فى حفل تأبينها بعد أربعين يوماً من وفاتها فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ متمثلا بهذه الأبيات للشاعر الأموى ذى الرمة :

خليليّ عدّا حاجتى من هوا كما ... ومَنْ ذا يواسى النفس إلا خليلُها ؟
ألمّا بمىّ قبل أن تطرح النوى ... بنا مطرحاً أو قبل بينٍ يزيلُها
فإلّا يكن إلا تعلّلَ ساعةٍ ... قليلا فإنى نافعٌ لى قليلُها

وقد أعجبت مى بهذا الاسم العربى لصاحبة ذى الرمة فاختارته لنفسها بعد أن بلغت أشدّها ، و تعرفت على شخصيتها الفذة المستقلة ، وأطّرحت اسمها الأول الذى أطلقه والداها عليها (مارى زيادة) .

ولقد كانت مىّ أو مارى زيادة لبنانية الأصل ، لكنها ولدت قبل مطلع القرن العشرين ببضع سنوات فى الناصرة التى عاش فيها السيد المسيح — من أرض فلسطين وكان أبوها مارونياً ، وأمها أرثوذكسية ؛ فشبّت أول ما شبت فى جو يسوده التسامح الدينى ، وأدخلت فى مدرسة للراهبات فى عين طورة بلبنان فتعلمت هناك قليلا من العربية وكثيراً من الفرنسية ، واشتهرت بين لداتها بحسن الإلقاء و براعة الإنشاء و إجادة التمثيل فى جمعية التمثيل بالمدرسة .

ولما أتمت دراستها اشتهرت فى لبنان كخطيبة ولا سيما بعد حفلة الكوخ الأخضر سنة ١٩١١ التى أقيمت فى ظهور الشوير بلبنان لتكريم الفتاة اللبنانية ، ولقد انتقل أبوها إلياس زيادة بعد ذلك إلى مصر حيث تولى إصدار جريدة المحروسة ، وانصرفت مىّ عن الكتابة بالفرنسية إلى الكتابة بالعربية ، وأخذت مقالاتها تترى على جريدتى المحروسة والزهور التى كان يصدرها وقتئذ أنطون الجميّل ، ولم تشغل الكتابة ميًّا عن الدرس بل ظلت تتابع المحاضرات فى الجامعة المصرية الجديدة وخارج الجامعة حتى حصلت على ثقافة واسعة منوعة من الدرس والرحلات ، و بلغ عدد اللغات التى تتقنها تسعاً .

ولم يكن تحوّل مى عن الفرنسية إلى العربية إلا تحولاً طبيعياً بعد إذ اتضحت لها نواحى شخصيتها ، وتعرفت على قوميتها ، فأحبت الشرق وعملت مخلصة فى سبيل رفعة شأنه . و إنها لتتدله فى هذا الحب إلى أبعد حد فتناجيه : « أيها الشرق ! يا شرق الطرب والحميا والنخوة والشدة العاصفة ، إنك لتتجمع تحت نظرى كلوحة مصورة ، فأرى فيك الفقر والجهل والاضطراب والاحتدام والانفعال . . . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة ، و برغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية ... أى قوة هذه التى تشد وثاق إليك ؟ لماذا أهوى من لغتك الشدو والشجى والنواح والنبرة السريعة الحادة والهتاف الأبىّ الحار ؟ ألا نظرة إلى هذه السماء المخيمة عليك ببهاء المجد واللجين والأرجوان ، إنها الجو الوحيد الذى أظل الرسل ، وما رضيتْ أن تنزل فى غير هوائه النبوّات . . . ها قد جاء وقت النهوض رغم النوائب والمثبطات . . . فإلى النهوض . . . » .

ولم يكن حبها للشرق بمانعها عن النظر السليم إلى الأشياء ، ولم ينشأ عنه أى نوع من التعصب ، بل كانت تدعو إلى الاقتباس من عناصر المدنية الغربية لأنها لا تؤمن بأن هناك مدنيات متعددة للشرق والغرب والشمال والجنوب ، لكنها تؤمن بوجود مدنية واحدة تعاونت الشعوب على تناول العمل فيها فالمسلمون أتوا بالنبوات ؛ والآريون هنود وفرس — أرسوا قواعد الفلسفات الباطنية والإلهيات ؛ واليونان الفن والفلسفة النظرية ؛ والرومان التشريع ، ثم جاء العرب فجمعوا هذه الثقافات المختلفة ، وورثوا هذه المدنيات ، وحافظوا على تراث الإنسانية ، وزادوا عليه حتى أسلموه لمن بعدهم . ولم يكن يعقل أن نَصِف مىّ بالتعصب وهى التى عاشت فى بلدان مختلفة ، وهفت نفسها إلى بلدان أخر ، واحترمت الأديان جميعاً ، بل إن تسامح مىّ وعاطفتها الإنسانية وروحها الكبيرة قد اتسعت حتى شملت العالم أجمع ، فأصبح لها وطناً ، والناس جميعاً إخوانا .

ولقد كان لميّ رسالة فى الحياة كرّست لها جهدها ووقتها ؛ تلك هى نهضة المرأة الشرقيه ، وقد لخصت غايتها من جهادها فى قولها « إن مجموعة أعمال المرأة غاية جليلة يقوم بها النساء عاليات الجباه تحت أكاليل العز والجهاد ، وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة ، وحلّت محلها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع ، ولا عبدة الحاجة ، ولا عبدة الرجل ، ولا عبدة قلبها ؛ وهو أعظم جائر مستبد » . إن هذا الكلام لميّ ليصور لك مدى القوة التى كانت تتمتع بها والعنف الذى كانت تعالج به موضوعاتها ، لكن هذا لم يخرج بميّ عن طبيعة المرأة لاسيما إذا مس الموضوع الناحية العاطفية فإن كفايتها عندئذ تسيل رقة وعذوبة حتى ليبدو أسلوبها النثرى نغمات من الموسيقى أقرب إلى الشعر ، أو هو فى واقع الأمر شعر لم يتقيد بالأوزان والقوافى . فاستمع إليها تتحدث عن نهر الصفا فى لبنان وقد أخذت من على شاطئه بعض الحصى الملونة تناجيها : « أيتها الجواهر سأحملك معى إلى وادى النيل لتذكّرينى بالعواطف الكثيرة التى تلاطمت فى فؤادى أيام نهر الصفا . . أنت ذكر الأبدية التى حييت فيها لحظة» . بل هى أحيانا تجد نوعاً من السعادة فى إعلان ضعف أنوثتها واستسلامها لهذا الضعف الذى هو من طبيعة كل امرأة ، فنراها تقول فى أحد كتبها : « سأدعوك أبى وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك قوى وعشيرتى أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين . . . وسأدعوك أخى وصديقى أنا التى لا أخ لى ولا صديق . . . وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة أنا التى تتخيل فىّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد . . . وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ، ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى . . . » .

بل إن الأنوثة الكامنة فى جوانحها لتصرخ فى قوة عندما تحب وتطالب بالفناء فى صحبة الحبيب فتقول له : « سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك . . . حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد وسأستمع إلى جميع الأصوات علّى أعثر فيها على لهجة صوتك ، أشرح جميع الأفكار وأمتدح

الصاقب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك . . . وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك . . » . .

« فى حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر منك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك » .

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل . . » .

« وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك أوحيت إلىّ ما عجز دونه الآخرون . . » .

إن القارىء لآثار مىّ يلمس وجود روح حزينة تكاد تسيطر على جميع كتاباتها ؛ فهى فى ربيع شبابها الباكر وفى سن الأمل الباسم قد أصدرت ديوان شعر باللغة الفرنسية رغم أنها لم تنظم الشعر فى العربية — أسمته (زهرات حلم) Fleurs de Réve وأهدته إلى روح لامرتين شاعر القلوب الحزينة الذى رفت روحه على كل صفحة من صفحات الديوان .

وقد يكون مرجع هذا الطابع الحزين إلى عكوف مىّ على دراسة التوراة تعيد فيها وتبدى ، وقد أضافت إليها بعد ذلك نوعاً من التشاؤم وسوء الظن بالناس بعد أن درست فلسفة أبى العلاء وأعجبت بآرائه .

وقد زادت هذا الحزن والهم أحداث الأيام وما أصابتها به من نوازل . . ومن يدرى لعل إخفاقها فى تحقيق حلم المرأة فى حياة سعيدة ناعمة زادها حزناً وأبعدها عن الناس حتى آثرت العزلة فى أعوامها الأخيرة واعتزال العالم .

ابراهيم ناجى

إبراهيم ناجى الشاعر ، والدكتور ناجى الطبيب الذى جعل من صناعة الطب شعراً وفنا إنسانيًّا نبيلا ... أو الفيلسوف الصوفى ناجى الذى كان لا يرى الحياة إلا طريق خير وعطف وصلة محبة ومودة ؛ فعاش حياته للناس ؛ وكل ماوصلت إليه يده كان للناس مشاعاً ، وترك لغيره الشقاء فى سبيل المادة ، وقنع لنفسه بالشقاء فى سبيل الناس .

ولد ذلك الرجل الفذ عام ١٨٩٨ فى أسرة متوسطة الحال ، ودرس فى المدارس المصرية ، ثم سافر إلى لندن حيث عكف على دراسة الطب والأدب عدة سنوات ، ثم عاد إلى مصر ليعمل طبيباً فى مصلحة سكة الحديد ، ثم فى مستشفيات وزارة الأوقاف إلى أن وصل إلى وظيفة مراقب القسم الطبى بتلك الوزارة ؛ وقد استقال من هذه الوظيفة قبل وفاته ببضعة أيام تحت تأثير ظروف خاصة ومضايقات فى العمل مما تأباه عليه نفسه .

وفى صباح اليوم الرابع والعشرين من مارس سنة ١٩٥٣ كان يزاول عمله الإنسانى فى عيادته يفحص مريضاً ثم ينصرف إلى ورقة يدوّن فيها بعض ما يهجس فى نفسه من أحاسيس وما يجول فى خاطره من شعر ؛ ثم يطرق بابه مريض آخر فيقوم بفحصه ، لكنه يعود إلى مكتبه و يمسك القلم ليكتب له الدواء ، لكنه يسقط على مكتبه فاقد الحياة فلا يسعفه طب ولا أطباء .

وكان والد ناجى رجلا مثقفاً وكانت له مكتبة كبيرة فى بيته يغرى أولاده على الاطلاع على ما فيها ، وكان فيها من ألوان الأدب الإنجليزى الشىء الكثير ، وكان الرجل يريد لابنه ثقافة واسعة . ولأترك ناجى يحدثنا عما أراده أبوه ، وما أرادته مطالعاته ، وما أراده القدر ... يقول ناجى : « أراد أبى شيئاً ، وأراد ديكنز شيئاً ؛

من خمر أوّلها ظمئت فما انتفاعى بالأخيرِ
إنى عييت بصبوتى وشقيت بالظمأ الكبير
من ذا يعين على الهجيرِ فكّى القيودَ عن الأسير
لا نبع فى القفر السحيق ولا نجاة على الغدير
شفتاك وعد غدٍ وإن غداً مديد كالدهور
خلّى سرابك فيهما مافى سرابك من نصير
وحيى على لحظاته بين القلائد والنحور
متألق الأمواج يغرى بالمرافئ والثغور

* * *

خطر الهوى وخلوده فى ذلك الحسن الخطير
فمن الصخور إلى العباب ومن عبابك للصخور

* * *

يا مالكاً حالى ، ويا قدرى الخفىّ ، ويا مصيرى
لا بالسلاف ولا للكؤوس ولا الندامى يا أميرى
إنى إلى الساقى ظمئت وليس للماء النمير

ونراه أخيراً ينزع إلى نوع من التصوف ، ويحاول ألواناً من التجرد الروحى ، فيتنكر للماديات فى حياته ، ويعيش عيشة هى أقرب إلى حياة الزهاد . وتشيع هذه الصبغة الصوفية فى شعره كله ؛ حتى إذا أنشد فى الغزل فهو أقرب إلى المتصوفة منه إلى روح العصر الذى يعيش فيه . . . اسمعه يتحدث (إلى س . . . .) :

همستْ فى خاطرى فاستيقظت روحىَ الحيرى وأصغت لِنداها
وأنا إن لم أكن توأمها فكأنى كنت فى الغيب أخاها
نحن أرواحٌ حيارى ثملت وانتشت سكرى على لحن أساها

قرّبى روحك منّى قرّبى ظلليني واغمريني برضاها
وتعالى حدّثيني ! حدّثى ! أنت مرآة شجونى وصداها
فهبيني ساعة الصفو التى تقسم الأيام ما فيها سواها
ثم أمضى لحياة مُرّةٍ صُبحها عندى سواء ومساها

حتى فى ساعة اللهو تراه ينظر إلى الراقصة فلا يقنع بما يراه من لهوها ، بل يغوص فى نفسها ، ويبحث بين حنايا قلبها فلا يجد إلا آلاماً من آلام الحياة ، فيتحدث عن هذا القلب فى قصيدة طويلة جاء فيها عن هذا القلب :

صبّته فى كأس وما سكبتْ فيه سوى أنّات مذبوحِ

ولقد أصبح ناجى فى يوم ملء الأسماع فى مصر والشرق ، وسمعت عنه الكثير الذى شاقنى إلى رؤيته حتى ساقته المقادير — منذ ستة أعوام — إلى أسيوط فى زيارة عابرة ، فالتقيت به ؛ فإذا أنا أمام رجل يفيض رقة وحياء وتواضعاً ؛ حتى أنى لما هممت أن أحدثه عن نفسه وأثنى على بعض إنتاجه ، قال لى مبتسما :

« يا أخى يقول الناس عنى أنى بين الأطباء شاعر ، و بين الشعراء طبيب» ... فما رأيت تواضعاً بلغ هذا الحد .

أما شاعريته فقد كانت قوية رائعة صافية كنفسه تفيض حيوية و إنسانية كقلبه ، فوسعت بيئته ، وأجادت التعبير عن كل ما وقعت عليه عيناه فى هذا الوجود ، وهو كثير .

وكان يصدر فى شعره عن إحساس قوى عميق بالحياة ، و إنك لتحس أنه يقتطع الصور من نفسه ، ويلونها بمداد من دمه حتى الطبيعة حين يصورها تأتى صورها مختلطة بحالاته النفسية وآماله وآلامه . فاستمع إليه يتحدث إلى البحر فى قصيدته « خواطر الغروب » :

قلت للبحر إذ وقفت مساء كم أطلت الوقوف والإصغاء !

وأراد كوبرفيلد شيئاً ، وأراد القدر أشياء غير هذه ! ما أظلم القدر ! فقد شاء أن أكون طبيباً وليس بالطب من حرج ، وإنما الحرج أن يكون الشعر مركباً فى طبيعة إنسان ، فإذا بالقدر يضعه فوق أسنّة المادة ، ويزجه فى الدائرة التى لا شعر فيها ولا خيال ! وإنما الحرج أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنات الجسد ؛ وشتّان بين هذه وتلك ! وإنما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ، ومهنته لأخرى ؛ حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك » .

أرأيتم كيف أن ناجى أشفق على نفسه من مهنة الطب ، بل لقد خشى أن يأتى يوماً ينسى فيه الشعر والأدب والفن وتجرفه مهنته المادية فلا يذكر شيئاً عن عالم الروح ؛ لكن متى انتصر الإنسان على أقداره ؟ :

وهل يأبق الإنسان من مُلك ربِّه فيخرج من أرضٍ له وسمـاء

كما قال أبو العلاء ؟

لقد تغلبت طبيعة الشاعر على مهنته فأحالتها رسالة للشعر فكان ناجى يمارس مهنة الطب فى كل مكان ... فى وظيفته ، وفى عيادته ، وفى الطريق ، وفى المقهى ، وفى مكان اللهو ... وكان يعود مرضاه الفقراء فى بيوتهم فى كل مكان من القاهرة ولا يأخذ منهم أجراً ، بل كان فى كثير من الأحيان يشترى لهم الدواء من ماله الخاص . وهكذا فهم ناجى الطب ، أفهمته طبيعته أنه رسالة إنسانية ، عليه أداؤها كما يؤدى رسالة الشعر .

ولقد تأثر ناجى فى حياته بتوجيه والده أول ما تأثر ، وكان لذلك الوالد أعمق الأثر فى توجيه مواهبه الأدبية والشعرية لكثرة ما قرأ له من الأدب العربى والإنجليزى حتى شغف ناجى بالمطالعة ، وأكثر منها ؛ لا سيما فى الشعر حتى أنه كان يحفظ الجزء الأول من (ديوان الخليل) عن ظهر قلب . وكان لهذه المطالعات أثرها السريع فى نفسه فبدأ ينظم الشعر فى سن مبكرة ، ثم انضم إلى جماعة (أبولو) التى

أسسها الشاعر أبو شادى ، وعلا نجمه فى سماء الشعر ، وظهر تفوقه ونبوغه . ولا شك أن رحلته إلى انجلترا أتاحت له فرصة أكبر ليغترف من بحار الأدب الإنجليزى ، وقد ظهرت آثار ذلك فى كل أعماله الأدبية سواء فى النثر أو الشعر وفى ميله إلى الغوص إلى أعماق النفس البشرية ليكشف عن العوامل الخفية التى تدفع الإنسان فى الحياة .

لكن ظل ناجى حياته يحس فى أعماقه بشخصيتين متناقضتين ... الطبيب والشاعر ... العالم والفنان ... وظلت هاتان الشخصيتان تتجاذبانه حتى مزقتا نفسه .

وتراه دائماً حائراً بين طبيعته حيرة أورثته ألماً ممضًّا لا يجد له منه مهرباً فيصرخ مستغيثاً :

ليت شعرى أين منه مهربى أين يمضى هارب من دمهِ ؟

ولا شك عندى فى أن ناجى ما اتجه إلى دراسة الفلسفة وما تعمق فى دراسة فرع علم النفس منها إلا بحثاً وراء طريق يريحه من هذه الحيرة التى اكتنفت حياته فلم تدع له إلى راحة النفس من سبيل . كشف له علم الطب والفلسفة عن حقائق كثيرة من حقائق الحياة وعاونتهما فى ذلك بصيرة الفنان الناقدة ... لكن الحياة عند ما كشفت عن بعضها لناجى جعلته يرتاع منها ويسىء الظن بنواياها حتى تمنى الجهل فقال :

كل شىء صار مرًّا فى فمى بعد أن أصبحتُ بالدهر عليما
آه من يأخذ عمرى كله ويعيد الطفل والجهل القديما

وطغت الفلسفة على حياة ناجى ، وصبغت كل شىء حتى صوره الشعرية ، فاستمع إليه فى قصيدته « الظمأ الكبير » التى يحاول فيها أن يعلل هذا الظمأ الذى يحسه ولا يجد له رياً لأنه لا رغبة له فى قدح الساقى بل فى روح الساقى .

قسماً بسرك فى ضميرى وجوى كشبوبِ السعيرِ
يا من أردت الرىَّ لى ما فى كؤوسك من مجيرِ

وجعلتُ النسيم زاداً لروحى وشربتُ الظلال والأضواء
إنما يفهم الشبيهُ شبيهاً أيها البحر نحن لسنا سواء
أنت باقٍ ونحن حرب الليالى مزّقتنا وصيّرتنا هباء
أنت عاتٍ ونحن كالزّبد الذا هب يعلو حيناً ويمضى جُفاء

أما إذا أنشد ناجى فى الغزل فهو إمام عصره فى هذا الفن بلا نزاع... ولمَ لا وهو الذى تفتحت عيناه على الحب، وظل حياته يلتمسه فى كل مكان، ويعرض قلبه للهبه المحرق، ويحوم حول نيرانه اللاذعة، ويتلظى فى سعيره المشبوب.

فاستمع إلى أنات الحب الصادق ولهفة المحب وظمئه وخوفه وإشفاقه من أن يؤذى الحبيب بنيران حبه:

ياحناناً كَيَدِ الآسى الرؤومِ وشعاعاً يُشتهَى بعد الغيومِ
أنا فى بُعدك مفقود الهدى ضائعٌ أعشو إلى نورٍ كريمِ
أشترى الأحلام فى سوق المُنى وأبيع العمر فى سوق الهمومِ
لا تقل لى فى غدٍ موعدنا فالغدُ الموعودُ ناءٍ كالنجومِ
ياجنان الخُلد قدّمت اعتذارى إذ يطوف الخلد سقمى ودمارى
أيها الآمر فى مُلك الهوى اعفُ عن لهفة روحى وأوارى
أشتهى ضمّك حتى أشتفى فكأنى ظامئٌ آخذ ثارى
غير أنى كلما امتدت يدى لعناق خفت أن تؤذيك نارى

وفى قصيدته (رجوع الغريب) تصوير رائع لتلك العواطف المتأججة فى صدره وقد أهاجها اللقاء بعد طول فراق كابد فيه ناجى من أهوال الحب:

عادت لطائرها الذى غنّاها وشدا فهاج حنينها وشجاها
أى الحظوظ أعادها لوفيِّها ونجىّ وحدتها وإلف صباها؟

مشبوبة التحنان تكتم نارها عبثاً وتخشى أن يبين لظاها !
يا إلفيَ المنشود سِرُّك ذائعٌ نار الحنين دفينها أفشاها !
فيم السؤال ؟ أما يدلك جارف من صبوتى جاز المدى وتناهى ؟
ودموع أشعار أثرت نواحها وجمالك الوحى الذى أملاها !

أما الصبر الذى كان يحمل نفسه عليه حملا وهو الحب المدلّه المدنف فقد صوره أبدع تصوير وأعجبه فى قصيدته « الانتظار » التى نجتزئ منها بهذه الأبيات :

لعينيك احتملنا ما احتملنا وبالحرمان والذل ارتضَيْنَا
وهان إذا عطفت ولو خيالا وأين خيالك المعبود أيْنَا ؟
تعال فلم يعدْ فى الحى سارٍ وهوّمت المنازل بعد وهنِ !
وران على نوافذها ظلام وقد كانت تطلُّ كألف عينِ
ومنتظرٌ بأبصارى وسمعى كما انتظرتك أيّامى جميعا
وهل كان الهوى إلا انتظاراً شتائى فيه ينتظر الربيعا

ومن قصيدة له لم تنشر بعد أنقل إليكم بعض أبيات ، وكأنى به يخاطب بها حبًّا جديداً . والقصيدة بعنوان « باقة ورد » :

أنت يا من جعلت روض حياتى مهد ورد إليك وردك رُدَّا
آية الورد أنه نفحة منـ ـك ومن عطرك الشذىّ استمدّا
هذه باقة من الورد تجثو مَلَكٌ فى الرياض أصبح عبدا
يا جمال الجمال من خلّد الحسـ ـن جميعاً فى نظرة منك تُفْدَى
يا صباح الصباح من يملك الأرْ ـواء وصفاً وللفرائد عدّا
ليس بدعاً يا وردة العمر أنّ (م) لمغناك وردة الروض تُهْدَى
لا تظنى ورداً يكافئُ ورداً أنت أغلى حسناً وأكرم وردا

غير أنى وإن عجزت عن التقدير حاولت ما تمكنت جهدا
رامزاً للوفاء بالورد وللقلـ ـب إلى أعمق السرائر ودّا
وإنى العيد أنت عيد لأيـ ـامى جميعا أنت الحبيب المفدّى

ومن العجيب أن أرى ناقدا أديباً ينعى على ناجى أنه عاش وحيداً فى أحلامه ، وضاق شعره عن أن يسع حياة مواطنيه فيما حوله ، بينما لو أنصف الناقد الكريم لرثى لناجى وأشفق عليه من الوحدة التى كان يحسها فى هذا العالم حيث كان يفتقد دائماً صدى مشاعره فى بيئته ، وهو الذى عاش من أجل الناس يبحث لهم عن السعادة ، ويقدم لهم كل ما ملكت يمينه ، ويبذل من نفسه لمواطنيه صباح مساء ، وإذا ما عاد مكدوداً بعد يوم عمله لا يجد أحداً يشركه آراءه أو يشكر له مجهوده ، وكأنه شاذ فى مجتمعه ، أو غريب عن عصره و بيئته ، فتنفطر نفسه أسى . وما أروع قوله يصوّر حاله :

يا قاسىَ البعد كيف تبتعدُ إنى غريبُ الديار منفردُ
إن خاننى اليوم فيك قلت غداً وأين منى ومن لقاك غـدُ ؟
إن غداً هوّةٌ لناظرها تكاد فيها الظنون ترتعدُ
أطـلُّ فى عمقها أسائلها أفيك أخفى خياله الأبدُ ؟
يا لامس الجرح ما الذى صنعت بـه شفاهٌ رحيمة ويدُ
ملء ضلوعى لظًى ، وأعجبه أنى بهذا اللهيب أبتردُ
يا تاركى حيث كان مجلسنا وحيث غنّاك قلبىَ الغَرِدُ
أرنو إلى الناس فى جموعهم أشقتهم الحادثات أم سعدوا ؟
تفرقوا أم هم بها احتشدوا وغوّروا هابطين أم صعدوا
إنى غريبٌ تعالَ يا سَكَنى فليس لى فى زحامهم أحـدُ

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان يحس الشاعر بقيود كثيرة تحدُّ من حريته ، فيحاول التخلص منها لأنها تقتل منه الروح :

أعْطِنى حرِّيتى ، أطلقْ يدىّ إننى أعطيتُ ما استبقيت شيّ
آه من قيدك أوهى معصمى كيف أبقيه وما أبقى علىّ

ويشيع التشاؤم بعد ذلك فى شعر ناجى حتى يئس من الحياة ولم يعد يرى لوجوده معنى بعد أن توالت عليه النكبات والمنغصات ، فترك على مكتبه هذه القصيدة التى لم تتم :

أملٌ ضائع ولبٌّ مشرَّدْ بين حب طغى وجرح تمرَّدْ
وضلال مشت إليه الليالى هاتكات قناعه فتجرَّدْ
وبدا شاحباً كيوم قتيل لم يكد يلثم الصباح المورَّدْ
غفر الله وهمها من ليالٍ صوّرت لى الربيع والروض أجردْ
قاسمتنى الورقاء أحزانَ قلبى وشجاه ، وغرَّدت حين غرّدْ
ثم ولت والقلب كالوتر الدا مى يتيم الدموع واللحن مفرد
ما بقائى ؟ أرى اطّراد فنائى وانتهائى فى صورة تتجدّد

وتشتد القيود ، ويرى ناجى من صحبه الغدر والخيانة ، فيسوء ظنه بالناس ، ويفكر فى الموت كالمخلّص الوحيد من عناء الحياة وغدر الناس :

عند ما تخلو ديارٌ من رفيقٍ وتحس السمّ فى كأس وساقى
عند ما يكشف حظٌّ وجهه سافر اللعنة مفقود الخَلاقِ
عند ما تمسى بظل عالقاً وبخيط الوهم مشدود الوَثاقِ
يا فؤاد انظر وفكِّر وأفِقْ أىّ قيد لك بالأوطان باقِ

ولقد كان ناجى من كتّاب القصة المبدعين ، وقد وجد فى القصة القصيرة

وسيلة للتعبير بها عن آمال قومه ، فكانت قصصه صوراً حية للبيئة المحيطة به وما يختلج فى قلوب أفرادها من آمال وآلام . وقد نحا فى أواخر أيامه منحى التحليل النفسى فاهتم فى قصصه بعرض نفسيات أبطاله للقراء ، و إبراز العوامل النفسية الخفية فى قلوبهم . و إنى لأذكر له قصة « زازا » التى نشرها فى إحدى المجلات فيما يقرب من عشرين عدداً .

كما أن ناجى اهتم بالصحافة كثيراً ، وكان قبل وفاته يكتب فى عدد ضخم من الصحف ، ينشر فيها مقالاته النثرية التى اتسمت بطابع الفلسفة والنظرة المجردة للحياة ، فتراه يوماً يتحدث عن « رسالة الحياة » فينتهى من الحديث إلى قوله « و يمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة ، فالحياة تسعى إلى البقاء وتهدف للكمال ؛ فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال » لكن روح التشاؤم التى سادت حياته تطغى على نثره كما طغت على شعره فأقرأه يوما يقول : « سنظل ندور كالنحلة إلى أن نموت ، ونحترق كالشمعة إلى أن نذوب » .

وأنى الذى يبكى على جرح غيره ومالى على جرحى الدفين نحيب

أجل ما أصدقك يا أبا شادى فى قولك هذا ! وما أقل ما لقيت من وفاء فى حياتك ! وما أكثر ما وجدت من جحود ! وأنت أنت :

الشاعرُ الغَزِلُ الذى سَحَرَ الهوى وسَبَا الجمال ورقّص الأنغاما

وعشت حياتك فى جهاد متواصل من أجل رسالتك السامية فى الحياة ؛ حتى صرت نجماً من نجوم الشعر فى سماء العروبة ، وصوتاً عربيًّا يتردد صداه فى المشرقين ، وفخراً لكل عربى فى العالَمين : الجديد والقديم

لكن هذا النجم هوى فجأة ، وذلك الصوت خفت على حين غرّة فى مساء الثانى عشر من أبريل عام ١٩٥٥ فى مدينة واشنطن بأمريكا مغتربًا عن بلاده ؛ بعيداً عن وطنه الذى فارقه مكرهاً عام ١٩٤٨ ... يوم أن أبى الضيم ، ورفض أن يبقى فى جامعة الإسكندرية لما لمسه من فوضى آنئذ واستهتار بحقوق المواطنين .

ولا أعتقد أن سبعة أعوام فى أمريكا عاشها أبو شادى وقلبه مشدود إلى وطنه وروحه هائمة حول مصره تسلكه فى عداد شعراء المهجر ، لا سيما وهو لم يهاجر مختاراً ، بل حفظاً لكرامته ؛ كما أنه لم يهاجر فى شبابه ، بل فى شيخوخته وآخر أيام حياته ، بعد أن نضج تفكيره واكتملت كل مقوّمات شخصيته ؛ مما لم يدع مجالا لتأثره بالبيئة الجديدة التى انتقل إليها ، بل بقى كما هو الشاعر المصرى العربى الذى نشأ فى الشرق وأشرب روحه .

فالدكتور أحمد زكى أبو شادى ولد فى القاهرة عام ١٨٩٢ فى بيت علم وأدب ، فكان أبوه محمد أبو شادى محامياً ، لكنه إلى جانب مهنته فى المحاماة كان خطيباً

بليغاً ، وشاعراً ، وأديباً . ولا شك أن هذه النشأة الأولى مع أبٍ كالأستاذ « أبو شادى » جديرة بأن تترك أعمق الأثر فى حياة شاعرنا الفقيد. ومما لا ريب فيه أن ذلك الوالد كان له أثره الكبير فى توجيه الشاعر وتشجيعه على سلوك حياته الأدبية .

ولقد كان الوالد يدرك أن الأدب فى الشرق — لا سيما منذ خمسين عاماً — لا يقيم أود صاحبه ، ولا يتيح له من أسباب الرزق ما يكفل له الأمن والطمأنينة فى الحياة ؛ ولذا فقد وجّه ابنه إلى دراسة عملية يحترفها للعيش ، وترك له الحرية بعد ذلك فى أوقات فراغه يوجهها أنّى يشاء .

ولقد تخرّج الدكتور أحمد زكى أبو شادى من كلية طب جامعة لندن عام ١٩١٥ لكنه لم يتمكن من العودة إلى بلاده إلا بعد أن وضعت الحرب الكبرى أوزارها .

عاد إلى مصر فوجدها فى ثورة وطنية رائعة ، وفى صحوة قومية مجيدة ؛ تجاوبت معها مشاعره ، فكان شعلة من حماس ونشاط فى ميادين الصحافة والأدب والشعر والاجتماع .

ولم يقتصر نشاطه على النواحى المعنوية ، بل قدّر أنه لا بد من عمل إيجابى لنهضة مصر ، وأهم ما يدعم هذه النهضة هو زيادة الثروة القومية لرفع مستوى الشعب المعيشى كيما يشعر بكرامته الإنسانية . وكان أهم عمل فى هذا المضمار هو تأسيسه لرابطة مملكة النحل التى أدخلت طرق النحالة العصرية فى مصر .

ولن تنسى جامعة الإسكندرية جهود الدكتور أبو شادى فى تأسيس كلية الطب بها ؛ تلك الكلية التى كان النزاع على مناصبها من أهم أسباب هجرته إلى نيويورك لما رأى فيه من تجافٍ عن روح العلم وكرامة العلماء ، وترك عمله كأستاذ بكلية طب اسكندرية ليعمل أستاذاً فى جامعة نيويورك . وإنى ليحضرنى فى هذا المقام أبيات قالها من قصيدة طويلة فى رثاء الأديب الإسبانى الحر بلاسكو إيبانز الذى مات فى المنفى لنزعته الجمهورية . ولو أن أبا شادى كان ينظر بعين الغيب فرأى محنته فى وطنه لما تحدث عن نفسه بأبلغ من هذا الحديث :

ولم ترضَ يوماً أن تكون مطيّة لشهوة حكام فكنت كميزانِ
وكنت مليكاً دون تاج يهابه أولو البغى من عاشوا بلذّة إنحانِ
شريداً ، عزيزاً مستقل شعوبه أعمّ من الحصر المخص بأبدانِ

* * *

فيا راحلاً والعالم الحرُّ نادبٌ صديقك والخصم المعاند صنوانِ
فإنك فنان وللفن حرمة وإنْ أخطأ التقدير فى حال إدجانِ
ولو كنت فى قدر كقدرك لم يكن رثائىَ إلا قصةً ذات ألوانِ
أضمِّنها إقدامك العمر مثلما أضمِّنها ما لاح من مجدك الثانى
وأروى حنيناً من تراب بموطن بعيد ومن شمس لديه وريحان

ولقد نفى الدكتور أبو شادى نفسه مختاراً ، ومات فى منفاه ولم يترك شيئاً لزوجه وأبنائه الثلاثة سوى قصة كفاحه النبيل .

وإذا تحدثنا عن أبى شادى الشاعر الفنان وجدنا أنفسنا حيال شخصية فذة متعددة النواحى ؛ إلا أن أبرز ما يميزها ذلك الاعتزاز الشديد بكرامته والمحافظة عليها اعتزازاً يشبهه ما نلمحه فى شعره من اعتداد بنفسه وفنه . وهكذا دائماً كل فنان أصيل تراه يحس نحو فنه إحساس الوالد نحو ولده فهو قطعة منه وهو فخور به . استمع إليه يحدثنا عن الفن فى وصف فنان :

هو الفن سلطانٌ على كل دولة يبدِّل من ضعف النفوس قُواها
ويكسبها من بعد فقرٍ لها غِنَى وأىُّ غنًى لولاه بزّ غِنَاها
تأمَّلهُ بين الحب والفن مبدعًا له جرأةٌ فى خشيةٍ تتلاهَى

كما امتاز أبو شادى بالوفاء العميق الذى لا يتحول ، وإنه ليدرك من نفسه هذه الخاصية الممتازة ، ويقدر أنه بعد فراقه وطنه لن تهدأ له نفس، ولن تقرّ روحه أبداً ؛ فيقول مودعاً مصر :

وضعت فيك حنانى للجمال كما ركعت فيك لساميهِ وطاهره
لألبثنّ وفيًّا لا يغيِّره عادى الخطوب أبيًّا فى ضمائِرِهِ
لئن أُميتَ كفاحى فى منابعه فسوف يحيا كفاحى فى مهاجِرِهِ

فإذا ما بلغه فى مهجره — وقد كان يعزِّى نفسه بهذه الكلمة — نبأ وفاة صديقه الممثل سليمان نجيب أنشد يرثيه ، بل يتفجع هو لغربته :

أخى سليمان هذى غُرْبتى بلغتْ بى غُرْبَتَيْنِ وزاد الموت إقصائى
قد كنت أشجى لنأْيى عنك فى أسفى ياليتنى دُمْتُ ذاك الآسف النائى

ولقد كان وفاؤه لأستاذه الشاعر خليل مطران — صاحب مدرسة الرومانسية الحديثة فى الشعر — من أروع أمثلة الوفاء فقد ظل لأستاذه التلميذ المخلص الأمين يدافع عنه ويشد أزره ، وينشر رسالته ، ولقد كتب مطران يرجوه فى زيارة قبل هجرته ، وكان أبو شادى بالإسكندرية ومطران فى القاهرة ، فكتب له قصيدة نقتطف منها قوله :

أودِّع النيلَ فى توديع شاعِرِهِ وقد أودِّع نفسى فى مشاعِرِهِ
ولا أباعد أوطاناً أقدِّسها إلا وروحى رهينٌ عند شاعره

والنزعة الرومانسية واضحة فى شعر أبى شادى الذى امتاز بتلك الصبغة الحزينة والخيال المحلق ، استمع إليه يتحدث كالحالم فى قصيدته « تشاؤمى » :

ركنى وجّهت بحثى وخاطرى إلى خَلْف ما تُبدى الحياة لوَسْنانِ
فأبصرتُ روحاً للجمال مُجدَّةً وأدركت أنّا للجمال كقربانِ
عزّى فؤادى أن كون ضحيّةً وأن يهب التجميلَ للكون حرمانى
وماخفت موتى كالغروب الذى قضى وحيداً فعُمرى والمنية سيّانِ

والطبيعى مهرب « الرومانسى » وإليها يلجأ ، وفى رحابها يجد العزاء والحب :

بينـا الطبيعة ترعانى وتسعدنى ببرِّها المتسامى دون أشباهِ
فيها اندمجتُ ولم أجحد رعايتها على المدى فإليها منتهى الجاهِ
وقُدسها عن غنائى من بدائعها موتى الحياة وقلبى ليس بالساهى

أجل . . . إن الشاعر ليندمج فى الطبيعة ويحس بالألفة التى تربطه بها ، فيضفى عليها من روحه ما يجعلها تمور بالحياة ، وتتحرك ، ويحس منها تجاوباً لمشاعره وعواطفه :

زُرْتُها أشكو إليها لوعتى من جحودٍ نالَنى من زمنِي
فاكفهرّتْ فى اكتئاب سُحْبها ثم صاحت صيحةَ الممتهنِ
وكأنى مذنبٌ فى عُرفها فهى أمِّى وهى مَنْ تُلهمُنى
مَوْئلى فى ظلّها أو نورها وهى فى عطف لها تنعشنى
كيف أشجى وهى حولى دائماً ملجئى ، بل معبدى ، بل وطنى
ثم لم تلبث على سخطٍ فقد صفحت عن زلّتى أو حَزَنى
والنسيم الحرّ يحكى ما رأى من غرام ومعانى الفتن
فأغتدى طبعى حنينى دائماً لجاليها التى تفرحنى
فأناجيها بحبٍّ معلنٍ وتناجينى ببِرٍّ مُعلنِ
منشداً شعرى وحسبى سمعها فهو منها ولديها يفْتَنِي

إنه يتحدث إلى الطبيعة وهى تفهم عنه وتجيبه لسؤله ... تأمله فى حديثه مع صديقه البحر :

هيمان مثلك يا صديق الشاعرِ أنظرْ تلهُّف ناظرىَّ وخاطرى
أنظلُّ تشجينى بموجك راوياً قصص الحياة لساكنٍ ولعابرِ

وما ضرّ الشاعر لو اعترف بفراره من دنيا الناس إلى عالم الطبيعة الرحب حيث الصفاء والجمال والأم الحانية التى ترعاه :

فررتُ إلى حضن الطبيعةِ ناجياً ... برُوحى إلى مرأى كروحى بسّامِ
كأنى وقد غيّبْتُ عنها رأيتُنى ... يتيماً ضريراً تائهاً بين أيتامِ
إلى حيث ناغَتْ فى وفاء محبّها ... بأجمل شعر جلّ عن أىّ إعجامِ
إلى حيث أزهار الطبيعة فى ندى ... من الطُّهر قد مَاست بحُلية أكمامِ
فررتُ إليها أشترى خيرَ نعمتى ... بروحى وروحى الصب أكرمُ مُسْتَامِ
وقد طاب لى بُعدى وراحة عزلتى ... هنالك عن خَلْقٍ وشاهق آطامِ

وعندما آثر خليل مطران الاعتزال والابتعاد عن المجتمعات ، ولم يعد له جلد على الكفاح تقدم الدكتور أبو شادى ليحمل المشعل ويواصل أداء الرسالة فأصدر مجلة « أبوأو » عام ١٩٣٩ وجعل منها لسان حال « جمعية أبولو » وهى جمعية كانت خاصة بالشعراء ، ولأول وآخر مرة فى الشرق العربى تفرد مجلة للشعر والشعراء ودراسة أعمالهم وتناولها بالنقد .

فكانت مجلة « أبولو » مدرسة جامعة جمعت بين أحضانها ناشئة الشعراء وفحولهم ، وتخرّج على صفحاتها جماعة من ألمع الشعراء كعلى محمود طه ومحمود أبو الوفاء . وكان يتزعم هذه المدرسة أبو شادى ، ويحس بخطر رسالتها ، ويعتز بها فهو يقول :

فحسبى أنى طابعُ نهضةٍ بَدَتْ ... بطابعىَ الفنّان فى المِثْلِ والضِّدِّ
يسير بها شعرى الطليق محرّراً ... وإن كان بعض الناس ينعم بالقَيْدِ

وكان من أهم أهداف هذه المدرسة التجديد فى أساليب الشعر العربى ، والخروج به من نطاق التقليد الضيق للمعانى القديمة والاستعارات البالية ، وتطوير أساليبه لتُجارى روح العصر ، ولتكون صورة صادقة للبيئة الجديدة التى نعيش فيها ؛ بيئة الكهرباء واللاسلكى . .

فنرى أبا شادى فى قصيدته « صائد الغنم » وهذا ما سمى به المذياع أو الراديو يصف هذه الآلة الجديدة الساحرة فى تلك الفترة من حياته :

هَلُمَّا صديقىَّ العزيزين وأغنما ... من الصفو ما يهواه مستمعانِ
فنى كل شبرٍ للهواء عواطفٌ ... وفى كل خفقٍ للأثير أغانى
تناجت بها الأربابُ من كل جانبٍ ... ويخطفها العُبّاد وهى دَوَانِ
فتُغنم أعمارٌ من الأنس حولها ... وتولد أحـــلامٌ لهم وأمانِ
أُدِرْها على سمعى كأنى بسمعها ... أذوق سُلاف الخُلد بين غَوَانِ
وليست عصا موسى بأروع سحرها ... من السحر فى مفتاحها ببنانى

وهو يذهب إلى أعماق الريف المصرى لا إلى بعير الصحراء فيصف الفلاّحة المصرية وجهادها فى حقلها إلى جانب أخيها الفلاح :

سِيرى خلال القطن بين تبسُّمٍ ... ما القطن إلا من تبسُّم فِيكِ
وَدَعِى الذى يدعوك ربّةَ مصرِهِ ... يجنى أبتسام الحب دون شَرِيكِ
إنى أُبايع بالسيادة مَنْ لها ... فى مجد وادى النيل مَجْدُ مَلِيكِ
ربَّتْ له همَمَ الرجال وأَطْلَعَتْ ... أملاً كوعدِ للصباح وَشِيكِ
أنت المؤلَّهة العزيزة بيننا ... وإنِ احتملتِ متاعباً لِذَوِيكِ
سِيرِى متوّجة بتاج محبَّةٍ ... للنفع والإصلاح جَنْبَ أَخِيكِ

وإن مشاعر أبى شادى الرقيقة لتأذى لما يقع فى هذا الريف المصرى من مظالم ومآسٍ ، وما يراه من فقر مدقع إلى جانب الثراء الفاحش ؛ وإنه ليترجم عن هذه الأحاسيس شعراً فيقول :

ما شان آلاف الفدادين التى ... هى كالمقابر للسواد العانى
ذهبوا بأرجاء البلاد تشرُّداً ... وتكفّنوا بمذلّةٍ وهَوَانِ

وجميعهم مَوْتَى وتلك لُحودهم ملء الضياع الضخمة العمرانِ
تركوا المقابر صاغرين فعيشهم ومماتهم بهوانهم سيّانِ

ولقد سمع أبو شادى وقرأ عن محنة فلسطين العربية وهو فى أمريكا ، فأرسل القصيد تلو القصيد يستنهض همم قومه العرب ، ويسخر من أخطائهم وتخاذلهم ، وينال منهم بلاذع قوله على ما فرطوا ؛ لكن بعد أن انجلت المعركة عن تلك المحنة القاسية غلبه شعوره الإنسانى ، وطغت طبيعته النبيلة ومشاعره المرهفة فأخذ يدافع عن اللاجئين العرب البؤساء بكل لسان وفى كل محفل . ولقد قال فى ذلك شعراً كثيراً مثل قوله :

خُرْسٌ فَمَنْ عن وَيْلِهِمْ يتكلَّمُ ومعذَّبون لهم تقامُ جَهَنَّمُ
جَنَتِ السياسةُ مثلما جَنَتِ الوَغَى والظالمون الغاشمون عليهمُ
وتشرَّدوا لا يملكون وجودَهم لو كان يُمْتَلَكُ الوجودُ المُهَمُ
إن المصيبة لا مثيل لرزئها فيما رَوَى التاريخ أو ما يعلم

وإن قلب أبى شادى الكبير لا يقف فى مشاعره عند حدود مصر ولا حدود العالم العربى ، بل هو إنسانى المشاعر ، عالمى النزعة . . . انه يألم لموت بلاسكو إيبانز الأديب الأسبانى الكبير ويعد فقده رزءاً عالميًا فهو يرثيه بقصيدة من أروع قصائده جاء فيها :

بلاسكو ! تموت اليوم فى النَّفْىِ بينما تعيش بدنيا قد ملكَت وأوطانِ
وترثيك آلافُ العقول التى نَمَتْ بنُورك فى ليل من الخوف لهفان
ويسكن هذا الصدر بعد اعتياده طليق الهواء الصفو فى قرب غدران
فيا أسفى للحُرِّ يمضى كعَبْدِهِ ويا ألم العقبان فى موت غربان

ولقد ظفر أبو شادى أخيراً بالتقدير فى الأوساط العالمية لهذه النزعة الانسانية العالمية التى غلبت على روحه ، فانتخب عضواً فى مجلس إدارة « الرابطة الدولية

لحقوق الإنسان » كما منح الزمالة الفخرية للاتحاد الطبي الأمريكي ، وإن راديو « صوت أمريكا » ما يزال يردد على العالم أصداء صوته .

وإذا كان قد ظفر بالتقدير خارج مصر فإنه طالما اشتكى من جحود قومه وعدم تقديرهم لفنه ولتضحياته ، ولم يكن أبو شادى مفرداً فى هذه الشكوى ، بل تلك كانت حال الأدباء جميعاً الذين عاشوا لفنهم فى الشرق من ربع قرن مضى ، وكان يدرك أبو شادى هذه الحقيقة فهو يقول :

رجاؤك أن تصيب وفاء قومٍ ... بررتَ بهم رجاء للمُحالِ
فتغنم غايةَ التسفيه ممّن ... بذلتَ له الرشاد وكلّ غالِ
ويغدو كلُّ حسنٍ فيك قُبحاً ... وكل كرامة شبه الضلال
وتلقى الاتهام يساق سَوْقاً ... إليك وحين لم يخطر بالِ
فما تدرى أصارَ الفضل عيًّا ... وبات النقص نوعاً من كمالِ ؟
وساوَى الألمعى بها جهولاً ... وأصبحت المساوئ كالمعالى !

ويبدو أن الحملة على الشاعر ومدرسته التجديدية كانت قاسية عنيفة بعثت بالمرارة إلى نفسه ، وتسللت إلى شعره ، فأفصحت عن عميق ألمه من ذلك التجنى :

عددتم ثباتى فى يقينىَ ضلّةً ... أصبتم ! فخلُّونى إذنْ ثابتاً وحدى
لعمرى ما باليتُ يوماً بجمعكم ... خصيماً كأنى شامخاً لستُ بالفردِ
ولكنّما باليْتُ عُمرى بمبدئى ... فنى مبدئى عِرْضى وأكرم ماعندى
وأُوذيتُ حتى قد تمنّعْتُ بالأذى ... وبالحَسَد المُشْقى وبالألم المُرْدِى
فإن كان لى فى جُرْأتى وصراحتى ... وفى تضحياتى ما حملتم من النّقْدِ
وإن كان سبقى وابتكارىَ ذلّةً ... ولم أرَ كالتجديد أقربَ للجدِّ
فلا خيرَ لِى فى مَدْحِكم بسلاسلٍ ... فإن مديح العبد أصلحُ للعبدِ

لكن الوطن مهما جار فهو عزيز على صاحبه ، والأهل مهما ضنُّوا وأخطأوا فهم كرام على نفس الشاعر ، وهو لا يألوهم نصحاً :

وطنى وإخوانى وأهل عقيدتى ... ما العيش بين رِضى وحظ كفافِ
إن الحياة شهيَّةٌ وعظيمةٌ ... فى حالَىِ الحرمان والألطاف
مالذلُّ ذلٌّ للجسوم وإنما ... ذلُّ النفوس هو الشقاء الطافى
فتعاضَدُوا وتذرَّعوا بثباتكم ... وإخائكم إن الإخاء يعافى
لكم الحياة مع التأنُّق كلما ... كنتم رجال توحُّد وتلاف
ودعوا خُرافات الخصوم ولَغْوِهم ... فكثيرها يحكى ثغاء خِرَافِ
خلُّوا الأمانةَ دَيْدَناً لتعاونٍ ... تجدوا التعاون أصدق الإسعاف
وتأمَّلوا الضوء العزيز بوحدةٍ ... فإذا تفرّق ضاع فى الأطيافِ

وهو يدعو قومه للاتحاد لمواجهة الأعداء والفوز بنعم الحياة وعدم المبالاة بالشائعات التى ينشرها الخصوم حولهم لتثبط هممهم ، وهو لا يتركهم للخيال والأوهام ؛ بل هو يرسم لهم السبيل السوى فيبصّرهم بما يجب عليهم عملهُ ، وأول شىء هو نصف الأمة المهمل . . . المرأة التى بتعليمها وإنصافها ستكون المدرسة الأولى للشعب . . . إنه يتحدث موجهاً الخطاب إليها :

وإذا تناساك الذين تخاذَلُوا ... جاهدتِ إشفاقاً على ناسِيكِ
وعملتِ زارعةً وحاصدةً لهم ... وغذوتِ أفئدة بروحٍ فِيكِ
حتى إذا انقشع الغرورُ تنبَّهُوا ... فإذا العتىُّ النفس يسترضيك
ويعاف إلا أن تكونى حرَّة ... فى عيشة تهنيه إذْ تهنيك
قَسَماً بقدرك لو نُصِفْتِ لأدركتْ ... مصرُ العزيزة كلَّ ما يرضيك

وأنه بعد ذلك يجعل أدواء قومه كلها فى قصيدة مطولة يخاطب بها صديقاً له عائداً من الخارج ، فيسأله عن تلك الدولة الأجنبية أسئلة استنكارية يلمس بها العلل التى تشكو منها مصر :

وهل مجهودها للفرد أمْ هَلْ غَدَتْ خيراتُها للحاكمينا ؟
وهل للنابغين بها حياةٌ تُذَالُ كحالِنا والنابغينا ؟
وهل للجهل سطوةُ مستعزٍّ على عقل يدين له مهينا ؟
وهل للعلم شعوذةٌ تناهَتْ فكان جهالةً للعالمينا ؟
وهل للفن سخريةٌ ولهوٌ وأضحى الفكر فيها مُستكينا ؟
وهل للشعر ألقابٌ وزَهْوٌ ودُولات تظل الفاسقينا ؟
وهل للطب ما نلقى : دعاوى تعيد لنا زمانَ الساحرينا ؟
وهل كانت صحائفهم خليطاً من الأدران تؤذى الناشئينا ؟
وهل عادت كنائسهم نهوضاً فكفّرت الهداةَ الفاتحينا ؟
وحاربتْ الذكاء وإنْ تعالى وهدّمت البناة المحسنينا ؟
وكم من مالك أضحى عُتُوًّا يدوس الفالحين الزارعينا ؟
وكم من خادم لم يُعْطَ حَقًّا من الدنيا فمات بها غَبينا ؟
وهل حرية الوجدان صدقٌ بها أم أنه صدقاً أُهينا ؟
وهل للباحثين بها مجالٌ أم ابتدعت عداء الباحثينا ؟

وقبل أن أختتم هذه الكلمة أودُّ أن أعرض عليكم أنموذجاً لِمَا كان يسميه أبو شادى « بالسونيتة الغنائية » وهو شعر لم يلتزم فيه قافية بعينها ؛ ويخيل إلىَّ أنه اقتدى فيه بما يعرف فى الإنجليزية بـ Blank verse

يا حياةَ الحب كيف الحياهْ ؟
بعد ما ضاعت عهود الحبيبْ ؟

ما جمال الصوت يحكى صداهْ
لا ولا الطب ظنون الطبيب
إنما الذكرى لمثلى عذاب
تشبه النَّوحَ بليل بهيمْ
مثلما حنَّ لماضى الشباب
دائم الوجد مُسِنٌّ سقيم
هكذا الطائر لما بكى
ما فاته حسٌّ بآتى الربيع
لكنما قلبى إذا ما اشتكى
يشكو كمسجون بحصن منيع
ما خيال الحب وهو البعيد
إلا تباريح الفؤاد العميد

لقد كان أبو شادى غزير الإنتاج ، ومن غزر إنتاجه كثرت هفواته ؛ ولذا كثيراً ما نلمح فى بعض قصائده الجفاف العلمى ، أو اصطناع المعانى ، وغلبة الصنعة الفنية على التعبير الشعرى . والأمثلة على ذلك كثيرة فى دواوين الشاعر ، لكن هذا لن ينقص من قدر أبى شادى كإمام من أئمة شعراء العصر ، ومجاهد سطّر صفحة من أروع صفحات الكفاح فى الحياة ، أرجو أن يجد فيها الشباب أسوة يتأسون بها .

أيها الشاكى الليالى إنما الغبطة فكرهْ
ربما استوطنتْ الكوخَ ، وما فى الكوخ كِسْره
وخَلَت منها القصور العاليات المشمخرّهْ
لك ما دامت لك — الأرض وما فوق المجرّهْ
فإذا ضيّعتها فالكون لا يعدل ذرّه
لا نكن مُرًّا . . ولا تجعل حياة الغير مُرَّهْ

هكذا وصف إيليا أبو ماضى السعادة وعرّفها للملايين وعاش حياته للناس كالشمعة المحترقة تضىء لتفنى ؛ سعادته الكبرى فى أن يكتنه أسرار الحياة ويقدم نتاج تجاربه لسعادة الناس .

ولقد ولد أبو ماضى فى قرية المحيدثة بلبنان سنة ١٨٨٩ وكان الشام جميعه ولاية عثمانية تعانى ألوان الفساد السياسى الذى كان ضارباً أطنابه فى أقطار الخلافة ، ولقد ألجأته ظروف الحياة السياسية والاقتصادية إلى الهجرة ، فنزح إلى مصر ، ونزل بثغر الإسكندرية سنة ١٩٠٠ حيث اشتغل بالتجارة بأن افتتح له محلا يبيع فيه الدخان والسجائر ؛ ومن حانوته الصغير أخذ يرسل الشعر إلى مجلة الزهور التى كان يصدرها مواطنه أنطون الجميّل . والذى تعهد الشاعر الصغير بالتشجيع حتى أصدر ديوانه الأول « تذكار الماضى » عام ١٩١١ ، وفى نفس العام هاجر إلى أمريكا واحترف التجارة فى مدينة سنسناتى ، لكنه لم يكن سعيد الحظ فى تجارته ، فانتقل إلى نيويورك عام ١٩١٦ حيث اشتغل بالصحافة ، وانضم إلى « الرابطة القلمية » وفى عام ١٩١٩ أصدر ديوانه الثانى ، وفى عام ١٩٢٥ أصدر « الجداول » ثم « الخمائل » عام ١٩٤٥ .

ولقد استقل عام ١٩٢٧ فى عمله الصحفى بأن أصدر السمير التى ظل يرعاها بدمه وفكره وقلبه حتى وافاه أجله فى مساء السبت ١٩٥٧/١١/٢٣ فى نيويورك .

لقد امتاز أبو ماضى بخلة الوفاء الشديد ؛ ذلك الوفاء الذى كاد يعنيه عناء كثيراً ، فهو رغم انقضاء معظم عمره فى المهجر لم ينس بلاده أبداً ، وعاش حياته على أمل أن تكتحل عيناه بمرآه قبل أن يموت ، وقد حقق الله أمله .

ومصر التى أمضى فيها أحد عشر عاماً ظلت ذكراها تتردد فى شعره ونفسه حتى قال :

لكن مصراً ، وما نفسى بناسيةٍ ... مليكة الشرق ذات النيل والهرمِ
صرفت شطر الصبا فيها فما خشيت ... نفسى العثار ولا نفسى من الوَصَمِ
فى فتية كالنجوم الزهر أوجههم ... ما فيهم غير مطبوع على الكرم
الشرق تاجٌ ، ومصر فيه درّته ... والشرق جيش ومصر حامل العلم
أحنى على الحرّ من أم على ولد ... فالحر فى مصر كالورقاء فى الحرم

وفلسطين جزء من الوطن العربى طالما أشقاه شقاؤها ، وطالما استنهض الهمم لشد أزرها :

فليست فلسطين ملكاً لكم ... ولكن فلسطين ملكٌ لنا
وكانت لآبائنا قبلنا ... وتبقى لأحفادنا بعدنا

من هنا وأعنى منذ فجر صباه عند ما اضطر للهجرة بدأت نفسه تعانى القلق ... فهى تحن إلى الوطن لكن آمالها تدفع بها إلى احتمال فراقه لتحقيق طموح الشاعر .

ثم أخذت رحلته فى الحياة تزوده بالمزيد من القلق حتى أصبحت نفسه ميدان صراع دائم بين قوّتى الدفع والجذب يمثل حيرته فى الحياة وظمئه الأبدى إلى الحقيقة ، وكان هذا الصراع ينعكس على شعره فترى القصيدة يصطرع فيها الموت والحياة ،

والحزن والفرح ، والأمل واليأس ؛ لكنها مع ذلك تنتظمها وحدة نفسية قوية عميقة هى سر عبقرية الشاعر :

سألتنى وقد رجعتُ إليها وعلى مفرق غبار السنينا[1]
أى شىء وجدت فى الأرض بعدى؟ قلت : إنى وجدت ماء وطينا
جمع الحسن والدمامة والإقـــدام والخوف والتُّهَمى والجنونا
والرجاء الذى يصير به الفَدَ فدُ روضاً وشوكه نسرينا
والقنوط الذى يعرِّى من الأو راق فى نشوة الربيع الغصونا
ووجدت الهوى كما كان قِدْماً ثقـــة تارة وطوراً ظنونا
وشباباً سكران من شدة الوهم يخال المحـــال أمراً يقينا
فإذا شاخت الرؤى وتلاشت وصحا بات جزمـــه تخمينا

وسط هذه الحيرة والاضطراب لم يفقد الأمل أبداً ، بل كان متفائلا دائماً داعياً غيره إلى الابتسام :

قال الليالى جرّعتنى علقماً قلت ابتسم ولئن جرعتَ العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنّماً طرح الكآبة جانباً وترنما

كما عاش أبو ماضى فى بيئته يصور أحداثها فى شعره وقصصه ، وينصح بالدواء لما يرى من أدواء ، فإذا شكا إليه شيوخ الأمة طغيان الحاكم وترحموا على الملك الراحل قال لهم :

لو فعلتم فعل أجدادكمُ ما قضى الظالم منكم وطَرَهْ
ما لكم تشكون من محنتكم رضتم ألسنكم أن تشكرَهْ
كيف لا يبغى ويطغى آمرٌ يتّقى أشجعكم أن ينظرهْ

(١) من قصيدة « ماء وطين » .

ما استحال المرءُ ليثاً إنما أُسُدُ الآجام صارت هِرَرَهْ

وشعر أبى ماضى غنى بما يسمى حس الطبيعة ؛ تلك القوة التى ينفثها فى صور الطبيعة فتستحيل إلى مخلوقات حية يتحدث إليها ، وتتحدث إليه ، يسائلها و يفتش فى جيوبها :

فتشت جيب الفجر عنها والدجى ومددت حتى للكواكب إصبعى
فإذا هما متحيران كلاهما فى عاشق متحير متضعضع
و إذا النجوم لعلمها أو جهلها مترجرجات فى الفضاء الأوسع

وكان أبو ماضى فى أول عهده بالشعر يعنى باللغة عناية فائقة وتفتنه الجزالة اللفظية متأثراً فى ذلك بالمتقدمين من الشعراء ، لكنه أصبح لا سيما بعد انضمامه إلى الرابطة القلمية فى نيو يورك يهتم أكثر بالقصيدة كوحدة واحدة وحياة متدرجة نامية ؛ إلا أن القلق والاضطراب لم يفارقه فى جميع أدوار حياته ، ولعل هذا التناقض الذى نلمسه فى شعره يعبر عن ظمئه إلى الحقيقة الذى كثيراً ما كان يقوده إلى حيرة مفزعة تفقد المرء الثقة فى نظام الكون وفى نفسه . . فى مثل هذه الصور التى نثرها فى قصيدته « الطلاسم » :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامى طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟

لست أدرى

أجديدٌ أم قديمٌ أنا فى هذا الوجودْ
هل أنا حرٌّ طليق أم أسيرٌ فى قيود

هل أنا قائد نفسى فى حياتى أم مقود
أتمنى أننى أدرى ولـكن . . .
لست أدرى

وطريقى ما طريقى ؟ أطويلٌ أم قصير
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أأنا السائر فى الدرب أم الدرب يسير ؟
أم كلانا واقف والدهر يجرى ؟
لست أدرى

حتى الموت لا يرى فيه أبو ماضى استقراراً وهدوءًا ، وكيف يكون كذلك بينما هناك مخلوقات لا تترك الميت فى سلام :

ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابرْ
هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر ؟
فأشارت فإذا للدُّود عيثٌ فى المحاجر
ثم قالت : أيها السائل إنى
لست أدرى

وتقوده هذه الحيرة إلى الـكفر بالفـكر الذى يشك فى وجوده إطلاقاً !

أتراه بارقاً أومض حيناً وتوارَى ؟
أم تراه كان مثل الطير فى سجن فطارا
أم تراه انحلَّ كالموجة فى نفس وغارا
فأنا أبحث عنه وهو فيهـــــا ؟
لست أدرى

ويداعب اليأس نفسه بعد أن أطال التساؤل ، فيسأل من جديد عن نفسه التى تتبدل :

لىَ إيمان ولـكن لا كإيمانى ونُسـكى
إننى أبكى ، ولـكن لا كما قد كنت أبكى
وأنا أضحك أحياناً ولـكن أى ضحكِ ؟
ليت شعرى ما الذى بدّل أمرى ؟

لست أدرى

ويلجأ أبو ماضى أخيراً إلى الطبيعة يدفن فى أحضانها حيرته ويرى فيها مهرباً له من الأسرار التى تعذب صدره كالأفاعى :

لم يسع سرى فؤادى لم تسع نفسى المغانى
فقصدتُ الغاب وحدى والدجى ملقى الجران
ودفت السرَّ فيه مثلما يدفنُ جانِ
ورأى الليـل قتيلى فبـكاهُ وبـكانى

واست أدرى لِمَ يهرب أبو ماضى إلى الطبيعة وتغلبه الروح الرومانتـكية دائماً فى معظم أدوار حياته ، بينما هو يعتبر الهروب إلى الدير عاراً أى عار :

أيهـا الهارب إن العار فى هذا الفرارِ
لا صـلاحٌ فى الذى تصنع حتى للقفارِ
أنت جانٍ أى جانٍ قاتل فى غير ثارِ
أفيرضى الله عن هـذا ويغفرْ ؟

لست أدرى

إيه أبا ماضى . . . أليس الخير فى الاستسلام للمقادير كما قلت ذلك يوما عندما أنشدت :

أراد الله أن نعشق لما أوجد الحُسْنَا
وألقى الحب فى قلبك إذا ألقاه فى قلبى
مشيئته . . . وما كانت مشيئته بلا معنى
فإنْ أحببت ما ذنبك ؟ أو أحببت ما ذنبى ؟

ولقد كان أبو ماضى يخشى الشيخوخة ويتهمها بأنها مجدبة لا توحى بشعر ولا تفيض عليه بالإلهام :

أفلتت منى حلاوات الرؤى عندما أفلت من كفِّى شبابى
بتُّ لا الإلهام بابٌ مشرع لى ولا الأحلام تمشى فى ركابى

ويقول يصف كمانه المحطمة :

لا حس فى أوتارها ، لا شوق فى أضلاعها ، لا حسّ فى باقيها
فارزحْ بحزنك يا حزين فإنها لا تنشر الشكوى ولا تطويها
وإذا انقضى عهد التعلل بالمُنى فالنفس يشفيها الذى يرويها

لكن الحقيقة أن قصائد أبى ماضى لا تعبر عن توقيت زمنى نضب فيه معين الشعر عند الشاعر ، بل إن مثل هذه الأشعار التى يذكر فيها تحطم قيثارته وانقطاع الوحى لم تكن إلا صدى لأزمات كثيراً ما اعترضت حياة الشاعر فى كل أدوار حياته ، وقد كان يتخذ منها حوافز لشحذ الهمة وتجديد العزيمة فهو هو القائل :

أثنان ما لاقيتُ أقسى منهما صمت الدجى والشاعر الحسّاس

لذلك ظل حياته يطالع الناس بالغالى من درره .

لكن هناك صفة أخرى غالبة على شعر أبى ماضى فى جميع مراحل عمره ألا هى ذلك الطابع الحزين حتى قال :

ألفتُ الهموم فلو أننى قدرت تمنّعتُ أن أطربا
كأن الجبال على كاهلى كأن سرورىَ أن أغضبا
وكيف ارتياح أخى غربةٍ يصاحب من همِّهِ عقربا

والبيت الأخير فيه مفتاح السر ، فحياته المضطربة وغربته كانا يورثانه حنيناً دائما إلى وطنه ، إلى جانب ما كان يحسه من تغيُّر الناس والصديق والصديقة :

الأرض . . . سوريّا أحبُّ ربوعها عندى ، ولبنانٌ أحبُّ جبالها
تشتاق عينى قبل يغمضها الردى لو أنهـا اكتحلت ولو برمالها

ولقد كان لأبى ماضى فلسفته فى الحياة التى انعكست على شعره ، فهو قد « خضع حيناً لحكم العقل ، ثم انتقض منطلقاً من إساره وحطم الأغلال ، وسار يستضىء بنور القلب ، وشرب من نبع الحقيقة الواقعية ، ثم مجّ طعم مائها ؛ وعاد يتغنى بالوهم الذى يزخرف الواقع ، وبعالم الرؤى الذى لا تستطيع كف أن تكبته أو تمحوه[1] » .

استمع إلى هذه المادية المغرقة التى صاحبت الطور الأول من فلسفته :

كل نجم لا اهتداء به لا أبالى لاحَ أو غربا
كل نهر لا ارتواء به لا أبالى سال أو نضبا
اسقنى الصهباء إن حضرت ثم صف لى الكأس والحَبَبا
ليس يروينى مقالك لى إنهـا العقيان منسكبا

---

(١) الشعر العربى فى المهجر للدكتورين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم .

وهو يسخر من الروحانيات وممن ينصحه بالزهد فى قوله يصف نفسه وقد تخيلها فى ثوب زاهد :

فكأننى البستان جرّد نفسه من زهره المتنوّع المتضوّع
ليحسّ نور الشمس فى ذرّاته ويقابل النسمات غير مقنّع
فمشى عليه من الخريف سرادق كالليل خيّم فى المكان البلقع
وكأننى العصفور عرّى جسمه من ريشه المتناسق المتلمّع
ليخفّ محمله فخرّ إلى الثرى وسطا عليه النمل غير مروّع

وأحياناً نرى أبا ماضى يبلغ درجة التشاؤم فى شعره فيبسط — كما حدث فى قصيدة الشاعر والملك الجائر — سيطرة الموت على الطبيعة وعلى الغاب وعلى الصالح والطالح دون تمييز ، حتى يفقد الثقة فى الكفاح والطبيعة بعد أن يكون فى أحد أطوار فلسفته قد آمن بالطبيعة ، واطمأن إليها ، وهام بها .

وتصطبغ فلسفة أبى ماضى كشعره بالاضطراب والقلق الذى ينتهى به إلى نوع من التصوف ، وعود إلى استرواح الإيمان ، ومحاولة للتحليق فى سمائه :

روحى التى بالأمس كانت ترتعُ فى الغاب مثل الظبية القمراء
نظرتْ إليكِ فأصبحت لا تقنعُ بالماء والأفياء فى الغبراء
تصغى وتنصت والحمامةُ تسجعُ إصغاؤها لكِ ليس للورقاء

ولقد صفت نفسه ، وكانت المحبة أرقى العواطف الإنسانية الخالدة هى أصل هذا الصفاء وطريقه إلى معرفة الله :

قال قوم إن المحبة إثمٌ ويحَ بعض النفوس . . . ما أغباها !
إن نفساً لم يشرق الحبُّ فيها هى نفسٌ لم تدرِ ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نف سى وبالحب قد عرفت اللهَ . . .

وآراء أبى ماضى الفلسفية كثيراً ما كان يبسطها فى قصصه الشعرى الذى يمثل جانباً عظيماً من دواوينه ، وكان فى هذه القصص « يتحدث إلى الناس بالرمز الجماعى الذى يحسونه ، فصوّر لهم طابع حياتهم ، وجعل من تلك القصائد صوراً مألوفة محببة لا تمحى لأنها لم تكن إضافة تافهة للتراث الشعبى ، بل كانت تمثيلا صحيحاً لنفسية الجماعة صادراً عن مقدرة عظيمة لخلق الأسطورة وحظ كبير من الروح الدرامية[1] » والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا كقصيدته (الشاعر والملك الجائر) و (الأسطورة الأزلية) و (الناسكة) وغيرها .

وإنه ليستعين فى هذه القصص بكل وسائل الفن القصصى حتى المفاجأة والتشويق كما فعل فى قصيدة « هى » التى أمعن بطلها فى إخفاء اسم حبيبته عن الحاضرين ، فهم يسألونه وهو يجيب :

قال : أجلْ أشرب سرّ التى بالروح تفدينى وأفديها
صورتها بالقلب مطبوعة لا شىء حتى الموت يمحوها
لا تترضّانى رياءً ولا تلثمنى كذباً وتمويها

فإذا ما ألحّوا عليه بالسؤال :

فأطرق غير مكترث وتمتم خاشعاً . . أمى !

وبعد فقد عاش أبو ماضى ينشد السعادة للناس ولا يرضى لهم العذاب والحزن حتى قال يوصى من تودعه :

أنا إنْ أغمضَ الحِمامُ جفونى ودَوَى صوت مصرعى فى المدينهْ
لا تصيحى واحسرتاه لئلا يدرك السامعون ما تضمرينهْ
وإذا زرتِنى وأبصرتِ وجهى قد محا الموت شكّه ويقينَهْ

---

(١) الشعر العربى فى المهجر .

لا تشقِّى علىَّ ثوبك حزناً ... لا ، ولا تذرفى الدموع السخينهْ
غالبى اليأس ، واجلسى عند نعشى ... بسكونٍ . . إنى أُحبُّ السكينه
وإذا الحارسان ناما عياءً ... ورأيتِ أصحابه يتركونهْ
فتعالى وقبِّلى شفتَيْهِ ... ويدَيْهِ وَشَعْرَه وجَبينَهْ
قبل أن يسدل الحجاب عليه ... ويوارى عنك فلا تبصرينه
وإذا الساعة الرهيبة حانت ... ورأيتِ حراسه يحملونه
وسمعت الناقوس يقرع حزناً ... فيردُّ الوادى عليه أنينَهْ
زوِّد الراحل الذى مات وجداً ... بالذى زوّد الغريبُ السفينه
نظرة تعلم السماوات منها ... أنه مات عن فتاةٍ أمينه
وإذا ما جلست وحدك فى الليـ ... ـل وهاجت بك الشجونُ الدفينه
فاهجرى المخدع الجميل وزورى ... ذلك القبر ثم حيِّى قطينَهْ
وانثرى الورد حوله وعليه ... واغرسى عند قلبه ياسمينه

أحمد شوقى

أمير الشعراء

مرحباً بالمقال سمحاً كريماً لم يَشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاء[1]

مرحباً بالمقال مقال شوقى . . . مرحباً بالقصيد العف والقول الكريم . . . مرحباً بالنفس الرضية والخلق العظيم . . !

إن شوقى هو ذلك الطير الغرد الذى غنّى فأطرب الوادى ، وأنشد فتردد نشيده فى الشرق كله وأطرب العروبة جمعاء ، فى مشارق الأرض ومغاربها مدى نصف قرن من الزمان .

ولد أحمد شوقى كما حدّث عن نفسه عام ١٨٦٨ فى القاهرة بباب إسماعيل فى أسرة تنعم بعيش رغد فى ظل حاكم البلاد ، وكان جده لأبيه قد أتى مهاجراً إلى مصر يحمل وصاة إلى واليها محمد على من أحمد باشا الجزار ، فعمل فى معية الوالى .

وقد أدخل شوقى مكتب الشيخ صالح عام ١٨٧٣ ، وتخرّج فى المدرسة الخديوية ، ودخل مدرسة الحقوق عام ١٨٨٣ فلبث فيها سنتين ، ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين ، والتحق بمعية الخديو توفيق الذى أرسله إلى فرنسا سنة ١٨٨٧ لدراسة الآداب الفرنسية والحقوق فقضى عامين فى مونبلييه ، وعامين فى باريس ؛ وزار خلال هذه الفترة كثيراً من الأقاليم الفرنسية و إنجلترا والجزائر .

وفى عام ١٩١٥ نُفى شوقى من مصر فاختار أسبانيا لإقامته حتى أذن له الملك فؤاد فى العودة فى نهاية عام ١٩١٩ .

عاد شوقى إلى مصر لا ليستأنف حياته فى قصر الملك ، ولا لينشد الشعر فى الأعياد والمناسبات ، بل عاد حرًّا من كل قيد ليتحدث إلى الشعب ، ويتحدث

---

(١) اسماعيل باشا صبرى فى تقريظه لشوقيات

الشعب إليه . . . بل ليتحدث إلى العروبة بأجمعها ، ولتتجاوب فى حنايا نفسه آمال الشرق ومآسيه ، وليترجم عن هذه الآمال ويصور تلك المآسى .

وظل نجم شوقى يعلو منذ عودته من منفاه حتى بويع بإمارة الشعر عن حق وجدارة ، وظل إنتاجه يعظم ويحسن ، حتى وافاه أجله فى صباح ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

عاصر شوقى فى حياته الثورة العرابية فى مصر ، وثورتها الوطنية عام ١٩١٩ ؛ كما شاهد الانقلاب العثمانى الأول الذى انتهى بخلع السلطان عبد الحميد ، ورأى الخلافة تزول فى النهاية عن تركيا وينهض على أنقاضها مصطفى كمال وجمهوريته ، كما شاهد انتفاض العرب خلال الحرب العظمى على دولة الخلافة ، وشاهد ممالك تزول ودولا تخلق ، وذاق آلام النفى .

ومن الظواهر المألوفة أن عصور الثورات وضعف الحكومات تشهد ازدهاراً فى الآداب والفنون ، وكأنى بالانحلال الأخلاقى الذى يسود تلك الفترات يلهب خيال الفنانين بما يكشف لهم من حقائق الحياة ونواحى الضعف فى النفس الإنسانية فى سهولة ووضوح .

ولقد تأثر شوقى بما شاهد وعانى واختبر فسَمَا بشعره عن العرض الزائل إلى الجوهر الخالد ، واتسع أفقه فشمل مصر والشرق كله ، بل الإنسانية بأسرها ؛ فنرى كارثة باليابان تهز أوتار قلبه فيتردد صداها شعراً يجرى به لسانه .

ولعل من أبعد الحوادث الخاصة — إلى جانب العوامل العامة — أثراً فى حياة شوقى رحلته إلى فرنسا ومكثه فيها أربعة أعوام . تراه فى أول عهده منها قد عرف الهوى الرخيص الذى اشتهرت به فرنسا فهو يصف لنا ذلك الهوى الخاطف الذى تسببه نظرة فابتسامة فسلام يعقبها كلام وموعد ولقاء ، ثم نسيان سريع لكثرة المعجبين أو المحبين .

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرُّهن الثناء
أتراها تقاست اسمى لمّا كثرت فى غرامها الأسماء
إن رأتنى تميل عنى كأن لمْ تكُ بينى وبينها أشياء
نظرة ، فابتسامة ، فسلام فكلام ، فموعد ، فلقاء
يوم كنا ، ولا تسل كيف كنا نتهادى من الهوى ما نشاء

ثم لا يلبث أن يلفحه الهوى بناره بعد ذلك و يصهر الحب روحه فتترك هذه الرحلة آثاراً لاتمحى فى قلبه وذكريات يرددها فى شعره ما بقى من أيام حياته وثورته حنيناً يعاوده بين الحين والحين .

فكتب شوقى عن الحب مترجماً عن شعور صادق وتجربة حية لا شك فيها . وما فى شوقياته من الغزل من خير ما قيل فى الحب ، لكنه بلغ أسمى المراتب من ذلك فى مسرحياته حتى حق لدىّ أن يلقب بنبىّ الحب كما جاء على لسانه فى وصف قيس :

نبىّ الحب لا تخشَ أذى أو شرّة منّا
عطفتَ الطيرَ والوحشا فلم لا تعطف الجِنّا ؟

ولقد كان شوقى شاعراً فناناً ، ولم يكن صاحب مذهب فلسفى ، ولم تخرج المعانى الفلسفية التى كانت ترد فى شعره عن معانٍ معادة وحقائق ثابتة كثر ترددها ؛ وكان شوقى فى ذكرها مقلداً للمتنبى وأضرابه من الشعراء المتقدمين :

أما شعر شوقى فلا شك فى إبداعه وسموّه وتفوّقه ، ففيه يجد القارئ تجاوباً فكرياً وعاطفياً لما يجول بقلبه وعقله فى لغة سهلة جزلة لا تنبو عن الذوق أو السمع ، يسيرة على أفهام الناس ، مستساغة لدى الخاصة والعامة ؛ لكنها صعبة المحاكاة .

وشعر شوقى غنى بموسيقاه اللفظية ، وليس أدل على ذلك من هذا العدد العديد

من الأغانى التى يختارها الموسيقيون والمغنون لتصويرها بموسيقاهم وأدائها بأصواتهم ، ولا أظن أن شاعراً ممن سبقه ، قد ترنم بشعره مثل هـذا العدد من الناس فى المشرق والمغرب .

وقد عيب على شوقى التقليد والإحالة ، ولا بد من بعض الضعف فى أعمال كل عظيم ؛ لـكن هذه الحالات القليلة التى تمسك بها بعض النقاد لا تنال من مكانة شوقى إذا قورنت بالتراث الضخم الذى خلفه للعروبة .

كما عيب عليه شعره فى المدح لأنه لم يسمُ به عن مدح السلاطين والأمراء حتى قيل إنه شاعر الأمراء لا أمير الشعراء . ولو نظرنا إلى مدائح شوقى جملة لاستوقف انتباهنا أمران : أولهما أنه لم يؤله ممدوحيه ولم يقل بأنهم خوارق أو شواذ ليسوا من طينة البشر كما فعل بعض كتاب الشرق والغرب[1] .

لا يقولن امرؤ أصلى فما أصله مسكٌ وأصل الناس طين

وثانيهما أن هذه المدائح صور واستعارات شعرية لا عقيدة سياسية ، لأنه إذا غير اسم الممدوح لم يغير ما يرمى إليه من القصيدة ، فأنت ترى دائماً أن اسم الممدوح لم يخرج عن كونه الروى فى الشعر الذى لا يزيد أو ينقص من قيمة الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعى . والقصيدة بعد ذلك نصح للممدوح وإرشاد . . . وماذا يهم اسم الممدوح وإذا كان شوقى يقول له :

والعدل فى الدولات أسٌّ ثابت يفنى الزمان وينفذ الأجيالا

وكان شوقى يتأثر بحوادث عصره فيحسن تصويرها فى شعره ، ويبذل النصح لقومه . . . فهو يرى عواقب الاختلاف الوخيمة ، ويرى ما يكيد به الساسة بعضهم بعضاً فيبذل النصح قائلا :

---

(١) شوقى لأنطون الجميل .

إلامَ الخُلْفُ بينكمو إلامَا وهذى الضجة الكبرى عَلَامَا ؟
وفيم يكيد بعضكمُ لبعضٍ وتبدون العداوةَ والخصاما ؟

وفى قصيدة (سلوا قلبى) يجمل أدواء قومه ووطنه ، ويوضح سبل الخلاص ، ولعل أبرز ما فيها حضه على البذل وتحذيره من ضن الأغنياء على الفقراء :

ولولا البخل لم يهلك فريقٌ على الأقدار تلقاهم غِضابا
تعبت بأهله لوماً وقبلى دعاة البر قد سئموا الخطابا
ألم ترَ للهواء جرى فأفضى إلى الأكواخ واخترق القبابا
وسوّى الله بينكم المنايا ووسّدكم مع الرُّسْلِ التّرَابا
أكلٌّ فى كتاب الله إلا زكاة المال ليست فيه بابا ! ؟

لكن حذار فإن الكرب إذا اشتد بهؤلاء البؤساء ثاروا وصاروا ذئاباً ضارية :

ولا كأولئك البؤساء شاءٍ إذا جوّعتها انتشرت ذئابا
ولولا البر لم يبعث رسول ولم يحمل إلى قوم كتابا

والشرق يمتاز بروحانيته وهى طابعه الفذ الذى عرف به فى العالم منذ بدء المدنية ، وهذه الروحانية تتمثل أحسن تمثيل فى حياته الدينية التى تسيطر على وجوده إلى حد بعيد ، وتكيف اتجاهاته فى كثير من الأحايين ، وتسبب له من المشكلات الجم الغفير . و إذا كان هذا شأن الدين فى حياة الشرق ، فلا شك أنه وجد مكانته وأثره فى حياة شوقى ، فها هو يعتز بدينه فى قوله :

آياته كلما طال المدى جددٌ يزينهن جلال العِتْق والقِدَمِ
يكاد فى لفظة منه مشرّفة يوصيك بالحق والتقوى و بالرحمِ
يا أحمد الخير لى جاهٌ بتسميتى وكيف لا يتسامى بالرسول سَمِى

ومع هذا الاعتزاز بالإسلام فإنا نرى الشاعر لم يؤذِ أحداً فى دينه ، بل كان

شعره سمحاً كريماً دائماً ؛ حتى إن أدباء المسيحيين والإسرائليين يتغنون بشعره الإسلامى ويطربون له طرب المسلمين أنفسهم .

ثم هو يحترم العقائد جميعاً ويجلّ الأديان وكتبها ، وله فى كل هذا حكمة بالغة هى :

الدين لله من شاء الإله هدى ... لكل نفس هوى فى الدين يعنيها
ما كان مختلف الأديان داعيةً ... إلى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكتب والرسل والأديان قاطبة ... خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصلٌ فى مراشدها ... وخشية الله أسٌّ فى مبانيها
وكل خير يلقّى فى أوامرها ... وكل شر يوقّى فى نواهيها
تسامح النفس معنى من مروءتها ... بل المروءه فى أسمى معانيها

وشوقى الشاعر يعتبر من دعائم المسرح العربى إذ أنه بحق أول من قدّم المسرحية المؤلفة الكاملة لهذا المسرح الجديد على عالمنا العربى .

ولقد سبقت شوقى عدة محاولات لإنشاء المسرحية الشعرية لكنها كانت عرجاء غير كاملة ولا ناجحة . . (كنزهة الأدب فى شجاعة العرب) التى ألّفها طالب أزهرى عام ١٨٧٢ فى خليط من النظم الفصيح والمواويل الركيكة .

وقبل شوقى كانت الأغلبية الساحقة مما يقدم على المسرح روايات مترجمة أو مقتبسة ؛ الأمر الذى لا يستقيم معه وجود مسرح عربى .

ولم يكن شوقى فيما كتب يعمل لسد نقص فى بيئته فحسب ، بل كان يكتب للخلود . وإنى ليأخذنى العجب كلما طالعت مسرحيته « مصرع كليوباترة » فأسائل نفسى أكان شوقى يصف مصر فى عهد كليوباترة أم هو يصف الشعب فيما حوله .. أم هو يصف جموع الشعب فى أى مكان تجمعت من العالم . . . ! ؟ استمع إلى قول « حابى » مخاطباً صديقه :

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليهِ
ملأ الجو هتافا بحيـاتَىْ قاتِلَيْـهِ
أثَّر البهتان فيـه وانطلى الزور عليـه
يا له من ببّغاء عقله فى أذنيـه

لـكن هذه هى سمة الخلود التى تطبع أعمال العباقرة لأنهم حين يصورون فإنهم يصورون تلك الخصائص الباقية التى لا تختلف باختلاف الزمان أو المـكان .

والحب تلك العاطفة الأبدية التى تشترك فيها الإنسانية جمعاء ، ولم تخل منه قصة ، بل كثيراً ما يقحم على القصة إقحاماً إرضاء للجماهير ؛ نجد أن شوقيًّا قد أفرد له مسرحية كاملة لا شىء فيها سواه .

ذهب شوقى فى (مجنون ليلى) يصور لنا الحب فى أسمى مراتبه وأعلى معانيه حتى بلغ فى ذلك ما لم يبلغه شاعر من قبله .

تأمل معى هذه الأبيات يترنم بهـا قيس وهو يسرى وحده فى الفلاة فى هدأة الليل وسكونه :

سَجَا الليلُ حتى هاج لى الشعرَ والهوى وما البيدُ إلا الليلُ والشعرُ والحبُّ
ملأتَ سماء البيد عشقاً وأرضَها وحُمِّلتُ وحدى ذلك العشقَ يا ربُّ
ألمَّ على أبيات ليلى بىَ الهوى وما غيرَ أشواقى دليلٌ ولا ركْبُ
وباتت خيامى خُطوةً من خيامها فلم يشفنى منها جوارٌ ولا قُربُ
إذا طاف قلبى حولها جُنَّ شوقُه كذلك يطفى الغلةَ المنهلُ العذب
يحنُّ إذا شطَّت ويصبو إذا دَنَت فيا ويح قلبى كم يحنُّ وكم يصبو !

لقد جعل دليل قيس إلى بيت ليلى ذلك الشوق المتقد فى صدره ، وجعل قربها يزيد فى وجده ويطغى من شوقه . . . أترى هناك وصفاً أبلغ من هذا للحب الصادق ! ؟ أم ترى هذا القول من جيد الصنعة اللفظية كما زعم بعض النقاد ؟ !

ولنصغ إلى ليلى تناجى قيساً وقد التقيا فى غربة :

أحقٌّ حبيب القلب أنت بجانبى ... أحلمٌ سرى أم نحن منتبهانِ ؟
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ ... بأرض ثقيف نحن مغتربانِ ؟

فينبهها قيس فى رفق وحنان إلى أن وطن المحبين هو حيث يجتمعان :

حنانيك ليلى ما نخلّ وخلّه ... من الأرض إلا حيث يجتمعانِ
فكل بلاد قرّبت منكِ منزلى ... وكل مكان أنتِ فيه مكانى

وفى المسرحية حديث عن كل ألوان الحب . . . ولعل من أروع ما قرأت فى التعبير عن حب الآباء وعاطفة الأبوة التى يعجز اللسان عن التعبير عنها هذا البيت يجريه شوقى على لسان المهدى أبى ليلى وقد بهت الشيخ إذ يتهم فى حبه لابنته فيقول مستنكراً الاتهام مستشهداً بفيض الحنان الأبوى :

أأظلم ليلى ؟ معاذَ الحنان ... متى جار شيخٌ على طفلةِ ؟

وهكذا نرى شوقى لم يكتب مسرحيات ثمانىَ فحسب ، بل كتب فأجاد فترك آثاراً خالدة فى الأدب العربى ، ووجّه التأليف المسرحى فى مصر إلى الوجهة القومية ، وشجّع كبار الأدباء والشعراء على متابعة الطريق .

ولم يكن فضل شوقى على الأغانى العربية بأقل من فضله على المسرح العربى ، وهو لم يقتصر على تقديم الأغانى لنا من النظم الفصيح بل لقد قاد ثورة مباركة فى دنيا الأغانى الشعبية التى كانت تعانى اضمحلالا وانحطاطاً مريعاً فهى لا تخرج على ترديد آهات وليالى ، ولا تحوى إلا المبتذل من المعانى والسقيم من الصور والخيالات ؛ فقفز بها شوقى إلى الأمام سريعاً ، وخرج على الناس بأغانى تعبر تعبيراً راقياً عن معانى سامية وشعور فياض ، وتفصح عن خلجات الفؤاد فى أحسن أسلوب وأقوم تصوير . ولنأخذ مثلا هذا الموّال :

فى الليل لما خلِى ... إلا من البا كى

والنُّوح على الدُّوح حِلِي للصارخ الشاكى
ونجمَهُ مالت ونجْمَه حلفت ما تتّاخر
والنوم يا ليل نعمه يحلم بهـا الساهر
الفجر شقشق وفاض على سـواد الخميله
لَمَحْ كَلَمْحِ البياض من العيون الـكحيلة
والليل سرح فى الرياض أدهم بغُرَّة جميلة

تأمل هذا التصوير البارع لبزوغ نور الفجر فى الليل البهيم مشبهاً إياه بلمح بياض العين السوداء و بالجواد الأسود ذى الغرة البيضاء . . . لا شك أنه لم تجد أغنية مصرية شعبية قبل هذه الأغنية ولا بعدها مثل هذا التصوير الفنى البديع .

وهو إذا عتب بلغ منتهى الرقة مع السموّ عن الابتذال الرخيص :

ليـــه تشتهى النـــوم عيونْ وعيون سَـــوَاهِى هواجعْ ؟
ودوح غرق فى الشـــجون ودوح ما داقش المواجـــع ؟

وفى أغنية « بلبل على الغصون » يصف شوقى الورد فيبلغ فى وصفه منتهى الإبداع والرقة مستعيناً فى ذلك بتشبيهات مبتكرة نادرة ، لـكنها بالغة الروعة والرقة .

يا ريحة الحبايب يا خدّ الملاحْ لشوكة جمالك وضعت السـلاحْ
تبارك اللى خَلَقْ ظلك من الخفّة واللى كساك الورق ولفُّه دى اللفّه
زى القُبَـل ولِّفت شِفّه على شفّه

رحم الله شوقى وعوض العروبة عنه خيراً .

من طين مصر نمّا ومن أنفاسها والأرض لا تنمى الشعور ذميما
كالأنبياء يفيض من إيمانه باللفظ شهداً والبيان شميما
صافى الفؤاد فليس ينبض مرة إلا صفيًّا للنفوس حميما

بهذه الأبيات من الشعر وصف الدكتور أبو شادى حافظاً (رحمهما الله) فأجاد الوصف وأبدع التصوير ، لأن حافظاً كان بضعة من مصر ، وقطعة من طينها ، عاش مخلصاً لها يصور خلجاتها وما ينتابها من خطوب ، وكان أصدق مصور لما وقع فى حياته من أحداث وللبيئة التى عاش فيها والمجتمع الذى أقام فيه متأثراً به ومؤثراً فيه .

« كالأنبياء يفيض عن إيمانه » وكذلك كل فنان ملهم يحس إحساساً قويًّا بما تقع عليه حواسه وتتفاعل فى قلبه خبراته وتجار به فيحاول الإفصاح عنها وتقديمها للناس بأسلوبه الخاص وأداته المفضلة .

أما صفاء الفؤاد فيكفينا الدليل عليه وعلى إخلاصه تلك القصة التى يرويها الشاعر مطران عن رحلة فى إحدى قرى لبنان مع حافظ حيث اعترض طريقهما زحام شديد ، واتفق أن عرف أحد الشبان مطراناً فأخبره مطران عن وجود حافظ معه ، ورجاه أن يفسح لهما طريقاً . واستعان الشاب بشيخ أبيض اللحية طويلها ما كاد يعرف وجود حافظ حتى تفرّس فى وجهه ، ثم قال لصاحبه : « الحمد لله أننى رأيته قبل مماتى » ، فوقعت هذه الكلمات فى قلب حافظ موقعاً عظيما حتى أن وجهه أخضل على سمرته بالدموع المتساقطة من عينيه ثم قال لمطران : « اليوم كوفئت أجلّ مكافأة عن خدمة أديتها لقوم كرام .

ولد محمد حافظ إبراهيم عام ١٨٧١ فى ديروط بمديرية أسيوط ، ونشأ فى القاهرة وبعد أن جاز التعليم الابتدائى وطرفاً من التعليم الثانوى التحق بالمدرسة الحربية وتخرج

ضابطاً فى الجيش المصرى ، حيث أرسل إلى السودان ليمكث بضع سنوات ، ويشترك عام ١٨٩٩ فى ثورة ، فيغضب عليه المستعمر ، ويطرد من السودان .

ثم يلتحق بعد ذلك بالبوليس فى أرياف مصر ، لكن تلحقه الغضبة فى البوليس ليخرج إلى الاستيداع ؛ ويحال إلى التقاعد وهو فى رتبة اليوزباشى .

يعود بعد ذلك ببضع سنين فيلتحق بدار الكتب المصرية فى وظيفة رئيس القسم الأدبى بها ، ثم وكيلا للدار حيث يظل فى هذا المنصب إلى أن يخرج منه فى الستين قبل وفاته ببضعة أشهر فى فجر ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .

أما أبو حافظ فكان من ضباط البوليس ، ولست أدرى مدى تأثير هذا الوالد فى حياة ابنه غير أن من المحقق أنه لم يكن بذى ثروة . وقد مات وترك حافظاً غلاماً يافعاً ، فكفله خاله ؛ ولم يكن أيضاً بالرجل الموسر ، فضاق بحافظ لبطالته وعدم سلوكه حياة منظمة ؛ وأحست نفس الشاعر بملل الحال ، فقال معبراً عن آلامه وحسه المرهف الذى أوذى :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب متوجهٌ فى داهيه

وكانت المدرسة الحربية هى الوسيلة للتخفيف من أعباء خاله ، ولاختصار الطريق إلى الحياة وكسب العيش .

فلما تخرج سار فى حملة استرجاع السودان ، وعاش هناك سنوات قلائل شعر خلالها بوطأة الاحتلال ، وكأنه نجا من خاله ليلقى عنت المغتصبين واستعباد المحتلين إلى جانب قلة ماله — ومن كان فى كرم حافظ لا يكفيه راتبه — فلم يشعر بتغير فى حياته ولا تقدم فى معايشه ، فخيل إليه أنه حليف بؤس وشقاء ، وأنه ضحية للظروف التى حرمته الأب ، وحرمته المال الذى يستطيع معه أن يفرغ لأدبه وشعره وما خلق له .

ولقد اصطلحت عليه بعد عودته من السودان الأحداث والمضايقات حتى اضطر حيالها أن يلتمس إحالته على المعاش ويبقى فى مصر بلا عمل .

هذه الأعوام التى عانى فيها حافظ آلام الحرمان وتقلب الحال وصروف الدهر هى أخصب سنى حياته إنتاجا ، لكنه عندما التحق فى سن الأربعين بالعمل فى دار الكتب أخلد إلى الراحة ، وآثر العافية والبعد عن السياسة ، وكبت ثورة نفسه فقلّ إنتاجه ، وأصبح شعره لا يسمع إلا فى المناسبات ، كرثاء من مات ، واستقبال من قدم ، وهو شعر يعتريه الفتور ، وتضعف فيه الحيوية ، ويغلب عليه الحرص على الوظيفة ومورد الرزق .

لا عجب — بعد كل ما قدمنا من ملابسات حياة حافظ — أن رأيناه متشائماً موغلا فى التشاؤم ، حتى قال يوماً : « لست أطمع فى أن تطول حياتى ، وددت لو لقيت الموت الآن . . . وإنى لأعجب من دلفه إلىّ ببطء كأنما أدركته الشيخوخة على توالى الأجيال فما يستطيع أن يسرع الخطى ليشفى نفساً سئمت العيش وبرمت الحياة . . . وماذا أبغى من حياة ضاعت الحقيقة فيها ، واستوى فيها المحسن والمسىء ، وهضم الغنى حق الفقير ، وشابت الفضيلة وترعرعت الرذيلة . . ! ؟ وما أنا وحياة تخاذلت فيها الهمم وفسدت الذمم ؟ »

وإنه ليعبر عن هذا الشعور شعراً فى قوله :

آذنت شمس حياتى بمغيبِ ودنا المنهل يا نفسُ فطِيبى
وارقبيه كل يوم إنما نحن فى فبضة علّام الغيوبِ
اذكرى الموت لدى النوم ، ولا تغفلى ذكْرتَهُ عند الهبوبِ
حنّ جنباى إلى برد الثرى حيث أنسى من عدو وحبيب
مضجع لا يشتكى صاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوب
لا ، ولا يسئمه ذاك الذى يسئم الأحياء من عيش رتيب

ولم تكن الأحداث العامة بأقل أثراً من الأحداث الخاصة فى توجيه حافظ هذه الوجهة القاتمة . فهو قد عاصر الاحتلال منذ وطئت قدماه أرض وادى النيل وشاهد الانقلاب العثمانى والحرب العظمى والثورة المصريه والكمالية والعربية ، ورأى عن قرب العروش تهوى ، والنظم الاجتماعية تزلزل ، وكل قيم الحياة تتغير ، وكل ما يبعث بالشك إلى النفوس وسوء الظن إلى القلوب .

وهو لم يرض يوماً عن حال بلاده وما آلت إليه على أيدى المستعمرين من سوء حال وضعف أخلاق ، وله فى ذلك شعر كثير كقوله :

وهل فى مصر مفخرة سوى الألقابِ والرُّتَبِ
وذى إرثٍ يكاثرنا بمالٍ غير مكتسبِ
وماذا فى مدارسكم من التعليم والكتبِ
وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب

ومما يسترعى النظر فى ديوان حافظ أنه قليل البحث فى التاريخ ، ولا يرجع ذلك إلى قصور فى شاعريته ، إنما إلى نقص فى علمه بحوادث التاريخ و بواعثها لأنه حينما كتب عمريته المشهورة كان يحلق فى سماء صافية من صفحات التاريخ ، و يجتلى فيها بعض الدرر الغوالى .

لكن مما حبب حافظاً إلى النفوس أنه صور مالمس بيده وما أحاط به عن قرب ... إنى أرى فى ديوانه صور أناس أخالطهم كل يوم ، وأسمع آلامهم ، وأعرف أخبارهم ؛ وحافظ كان لسانهم المدافع عنهم .

وقد ساعدته عاطفته الجياشة وشعوره الرقيق على إجادة هذه الصور حتى غدا شاعر العروبه وشعره سجل الأحداث المعاصرة له .

و إلى جانب هذه الحساسية المتناهية كان حافظ ضليعاً فى علوم اللغة مما ساعده على تقديم صوره الشعرية فى أطر من اللغة بالغة القوة والإبداع ؛ حتى لقد قال عنه

مطران : « يتعب فى قرض قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج تمثال جميل من حجره ؛ يؤثر الجزالة على الرقة ، وله فيها آيات » .

وقد كان له نصيب من (حس الطبيعة) وهو اهتزاز نفس الشاعر من مشاهد الطبيعة ، وما يحدثه هذا الاهتزاز من تجاوب مع قلب الشاعر وروحه فيتردد صداه فى شعره روحاً يضفيها على هذه المشاهد ، فتتحرك بالحياة ، وتنبض بالروح ، وتتحرر من جمودها ...

تأمل هذين البيتين :

ولو شئتُ أذهلتُ النجوم عن السُّرَى وعطّلتُ أفلاكا بهنّ تدورُ

وأشعلتُ جلدَ الليل منى بزفرة غرامية منها الشرار يطيرُ

تحس بأن النجوم والليل كائنات حية ، ولليل جلد يأذى ويحس كجلد الشاعر نفسه .

ولم تقتصر شاعرية حافظ على الطبيعة واجتلاء صورها ، بل كان له فى فنون الشعر جولات موفقة ، وكان فى كل ناحية من القول يعبر عن شعور صادق و إحساس عميق ، فتراه حين يمدح صادقاً فى مدحه معبراً عن شعوره العميق بفضل الممدوح واستحقاقه للثناء ... تأمل معى قليلا هذين البيتين :

بكرًا صاحبىّ يوم الإيابِ وقِفَا بى بعين شمس قِفَا بى

إننى والذى يرى ما بنفسى لمشوقٌ لظل تلك الرحابِ

ألا تحس مع الشاعر بتلك الفرحة الغامرة التى فاضت على مشاعره ، وكأنى به يود لو يطير إلى منزل الإمام محمد عبده فيلقاه ساعة عودته و يحظى برؤيته لحظة أو بته ، فلا تضيع من هذه الفرصة دقيقة .

وهو يقول عن الإمام فى قصيدة أخرى :

كأن فؤادى إبرة قد تمغطّستْ بحبك أنّى حُرِّفَتْ عنك تعطفُ

كأنّ يراعى فى مديحك ساجدٌ مدامعه من خشية الله تذرفُ

ولم يكن لهذا القلب الكبير الذى يفيض إخلاصاً لأصدقائه أن يضيق بحب بلاده كلها ويتغنى بهذا الحب فى أشعاره حتى أصبح « شاعر النيل » والوطنية غير منازع ، بل إن قلب حافظ قد وسع أمته بل العروبة جمعاء فصار لها ترجمان صدق ولسان دفاع . . . بلادها جميعاً وطن له :

لمصر أم لربوع الشام تنتسبُ هنا العلا وهناك المجدُ والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافقٌ يَجِبُ
خدران للضاد لم تهتك ستورهما ولا تحوّل عن معناها الأدبُ
إذا ألمّت بوادى النيل نازلةٌ باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم أجابه فى ذُرى لبنان منتحبُ
لو أخلص النيل والأردن ودّهما تصافحت فيهما الأمواهُ والعشبُ
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانة إلا الشام عاجَ على ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُبُ
إن يكتبوا لىَ ذنباً فى مودتهم فإنما الفخر فى الذنب الذى كتبوا

والشعر السياسى يمثل أهم أجزاء ديوان حافظ ، وقد كان حافظ داعية إلى الجهاد يهز قلوب مواطنيه بأشعاره الحماسية التى تفيض قوة ورجولة ووطنية فهو يقول :

حوّلوا النيل ، واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجمَ ، واحرمونا النسيما
واملأوا البحر إنْ أردتم سفيناً واملأوا الجو إنْ أردتم رجوما
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ أو ترونا فى الترب عظماً رميما

فإذا ما وقعت حادثة دنشواى التى خرج فيها القرويون يذودون عن أرواحهم

وأموالهم ، فاستكبر المستعمر ذلك ، لا سيما وقد مات أحد رجاله من ضربة الشمس ، فأخذ ينكل بالأبرياء والمساكين . . . كان حافظ أول شاعر سجل المأساة فقال يخاطب الغاصبين :

وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربى فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تقيدوا سن أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صادا

ثم هو يذكر التمثيل بمن أعدموا أو جلدوا فى تلك المهزلة على أيدى الإنجليز ، ويذكر هؤلاء بسوء ما فعلوا :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتمُ أم كياداً ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جماداً ؟
ليت شعرى أتلك محكمة التفتيـ ـش عادت أم عهد نيرون عادا ؟

وما كان لمأساة مثل دنشواى أن تنسى سريعا ، وما كان لحافظ ولا لشعب مصر أن ينسى ذلك الظلم والوحشية والتنكيل الذى حل بمواطنين أبرياء بصورة تبرأ منها الإنسانية وتنكرها المدنية ، فنرى حافظاً يصور قسوة الأحكام فى قصيدة أخرى :

جُلدوا ولو منّيتهم لتعلّقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شُنِقوا ولو منحوا الخيار لأهّلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه بين الشفاه وطعمه لا يعذبُ

ولا ينسى حافظ وهو يودع كرومر دنشواى ، ولا وهو يستقبل المندوب الجديد خليفة كرومر بقصيدة أخرى من عيون الشعر يتمنى فيها أن يكون على يديه حوادث كدنشواى التى أيقظت المشاعر الوطنية .

وفى نفس القصيدة عرض سريع لبعض مظاهر المجتمع الجديد فى ظل الاحتلال :

بنات الشعر إن هى أسعدتنى شكوتُ من العميدِ إلى العميدِ
قتيل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجعَ القوم الرقودِ
فليت كرومراً قد دام فينا يطوِّق بالسلاسل كلَّ جيدِ
ويتحف مصر آناً بعد آنٍ بمجلودٍ ومقتولٍ شهيدِ
لننزع هذه الأكفان عنا ونبعث فى العوالم من جديد
وفى الشورى بنا داء عهيد قد استعصى على الطب العهيدِ
شيوخ كلما همّت بأمر زأرتم دونه زأر الأسود
لِحًى بيضاء يوم الرأى هانت على حُمر الملابس والخدود

وهو فى شعره السياسى لايقتصر على مصر ، بل هو دائماً يقصد العروبة كلها ويتحدث إلى العرب فى كل مكان ... فاستمع إلى هذا النداء يوجهه إلى الشرق العربى بمناسبة مأساة طرابلس :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفقْ يا شرق ، واحذر أن تناما
وأحملى أيتها الشمس إلى كل من يسكن فى الشرق السلاما
واشهدى يوم التنادى أننا فى سبيل الحق قد مِتْنا كراما
مادت الأرض بنا حين انتشت من دم القتلى حلالًا وحراما

وهناك لون آخر من الشعر أجاد فيه حافظ ، بل هو من أجود شعره ؛ ذلك هو الرثاء ، ولعل ذلك مرجعه لروح التشاؤم التى كانت تلازمه ، ولهذا الشقاء الذى كان يتخيله ، ولما كان يحسه من ظلم الزمان له ، حتى أجاد التوجع والتألم والشكوى .

فإذا رثى حافظ فهو يتحدث عن المرثى وصلته الشخصية به وفجيعته فيه ، وترى القصيدة تسرى فيها لوعة الحزن الشخصى وروعة الوفاء ، ويبرز فى القصيدة صورة الفقيد وأعماله وخلاله .

فرثاء حافظ من النوع الإنسانى البسيط ، يختلف قوة وضعفاً حسب مكانة المرثى فى حياة الشاعر أو فى الحياة العامة ، وهو بكاء من الشاعر لنفسه ولذكرياته وأصدقائه الراحلين لا تكلف فيه ولا تصنع . . . فلا فلسفة هناك ، ولا محاولة للتفلسف ؛ إنما إرسال للنفس على سجيتها فى الحزن وتصوير لهول المصاب .

فأنت إذا قرأت رثاء حافظ للشيخ محمد عبده خرجت بصورة لمواقفه وأعماله وآثاره ، ثم لفجيعة العلم والدين فيه ، ثم لهذا الأسى واللوعة التى تغمر نفس حافظ لفقده وفقد منزله فى عين شمس الذى أظله كثيراً .

سلام على الإسلام بعد محمّدٍ ... سلام على أيّامه النّضِرَاتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحِجَا ... على البرّ والتقوى ، على الحسناتِ
لقد كنت أخشى عادىَ الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى — والقبر بينى وبينه — ... على نظرة من تِلْكُمُ النظراتِ
وقفتُ عليه حاسر الرأس خاشعاً ... كأنى حيال القبر فى عَرَفاتِ
تباركتَ هذا الدين دين محمد ... أيُترك فى الدنيا بغير حُماة ؟
تباركتَ هذا عالِمُ الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للغَمَزَاتِ
بكى عالَمُ الإسلام عالِمَ عصره ... سراجَ الدياجى هادمَ الشُّبُهاتِ
بكينا على فرد وإن بكائنا ... على أنفُس لله منقطعاتِ
تعهّدها فضل الإمام وحاطها ... بإحسانه والدهر غير مواتى
فيامنزلا فى عين شمس أظلنى ... وأرغم حسّادى وغمّ عِداتى
عليك سلام الله مالك موحشاً ... عَبُوس المغانى مقفر العَرَصَاتِ

وكذلك جميع مراثيه فهو إذ يرثى مصطفى كامل يصور حزنه وحزن مصر رجالها ونسائها على الفقيد مع تصوير أعمال بطولته :

نثروا عليك نوادىَ الأزهارِ وأتيت أنثر بينهم أشعارى
غادرتنا والحادثات بمرصد والعيش عيش مذلة وإسارِ
عزَّ القرار علىَّ ليلة نَعْيِهِ وشهدت موكبه فقرَّ قرارى
شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ منه مراتب الأقدار
تسعون ألفاً حول نعشك خشَّعٌ يمشون تحت لوائك السيَّارِ
خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطار
كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الأستار

وفى ختام هذا الحديث عن حافظ لا بد من ذكر شىء عن فكاهاته التى وهبها الله له ليضحك من بؤسه ويتهكم بشقائه ، وهى طبيعة المصرى الصميم ومزاجه الذى يظهر المرح ويكتم الألم والحزن ، بل يتخذ من مرحه الظاهرى الممزوج بالفكاهة وسيلة للتنفيس عن شقائه ، ومنفذاً للترويح عن آلامه .

وقد أضافت هذه الروح فنًّا مستحبًّا لفنون حافظ فى الشعر يظهر أكثر ما يظهر فى شعره الذى يداعب به إخوانه ويشكو إليهم فيه زمانه .

فقد كتب إلى جار له يوم زفافه يستهديه طعاماً :

أحامدُ كيف تنسانى وبينى وبينك ياأخى صلة الجوارِ
أيشبع مصطفى الخولى وأمسى أعالج جوعتى فى كسر دارى
وبيتى فارغ لا شىء فيه سواى ، وأننى فى البيت عارِ
وما لى جزمة سوداء حتى أوافيكم على قرب المزارِ
فإن لم تبعثنَّ إلىَّ حالا بمائدة على متن البخارِ

تغطيها من الحلوى صنوف ومن حَمَلٍ تتبَّـل بالبهارِ
فإنى شاعر يخشى لسانى وسوف أريك عاقبة احتقارى

وقد صور حافظ الـكثير من الأمثال العامية والتعابير المصرية فى شعره الفـكه كقوله فى حفلة تـكريم حفنى ناصف :

لولا الحيـاء ولولا دينى وعقلى وسنى
لقُمت فى يوم حفنى أدعو لسكرة يغنَّى
لا تنس عيشاً تولَّى ما بين شرح ومَتنِ
وذقت من (جاء زيد) ومن شروح الشمنّى
أيام (سلطان) يلهو (بمشّـه) ويغنى
يشـكو إليك وتشـكو إليـه عيشة غبن

هذا هو حافظ ، و . . .

هذى مناقبه فى عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها

فهرس

	صفحة
مقدمة الناشر	٥
شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة	
القصص فى ديوان ابن أبي ربيعة	١٢
جميل بن معمر	١٨
كثير	٢٥
بشار	٣١
العباس بن الأحنف	٣٨
ابن الرومى	٤٦
الشريف الرضى	٥٧
المتنبي	٧٠
ابن زيدون	٨٠
ولادة بنت المستكفى	٩١
ابن زمرك ، شاعر ملك	٩٦
جميل صدقى الزهاوى	١٠٣
معروف الرصافى	١١١
أبو القاسم الشابى	١١٨
مصطفى صادق الرافعى	١٢٦
عبد الحميد الديب	١٣١
الآنسة « مى »	١٣٩
إبراهيم ناجى	١٤٤
أبو شادى = أحمد زكى	١٥٤
إيليا أبو ماضى	١٦٦
أحمد شوقى	١٧٧
حافظ إبراهيم	١٨٦

obeikandl.com